الينابيع

رحلة السّندباد المجهولة

مجدي صابر

مكتبة لبنان ناشرون

الينابيع

رحلة السّندباد المجهولة

مكتبة لبنان ناشرون

الينابيع

الينابيع تتفجر من التراث العربي الأصيل، ومن السير الشعبية الغنيَّة، ومن الحكايات الشعبية العربيَّة؛ لتصوّر نماذج مضيئة من تراثنا، وتعرض قيمًا مشرقة في حياتنا: تمزج بين الجد، والفكاهة في لغة هادئة راقية: لا تعلو فتعوق القارئ وتصده، ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه، وإنما تمتع وجدانه وقلبه، وتثري فكره وعقله.

الينابيع



01R160705

الشركة المصريّة العالميّة لِلنشر - لونجمان

مكتبة لبنان ناشرون

رحلة السندباد المجهولة

الينابيع

رحلة السندباد المجهولة

مجدي صابر



مكتبة لبنان ناشرون   الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ أ ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ١١٣١١ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٣٣ - ٠

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الْفَصْلُ الأوَّلُ

الشَّيْخُ الغامِضُ

كانَ السِّنْدِبادُ يَعيشُ في عَصْرِ الخَليفَةِ (هارونَ الرَّشيد) في بَغْدادَ . وَكانَ فَتًى ثَرِيًّا وَرِثَ عَنْ والِدِهِ التّاجِرِ الثَّرِيِّ مالاً عَظيمًا وَضِياعًا واسِعَةً . وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ كانَ قَليلَ الخِبْرَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ ناصِحٌ أَوْ قَريبٌ يُرْشِدُه ، فَأَوْشَكَ أَنْ يُبَدِّدَ ثَرْوَتَهُ ، وَظَلَّ مالُهُ يَتَناقَصُ عَلى الدَّوامِ دونَ أَنْ يَتَنَبَّهَ إِلى ذَلِكَ ، وَهُوَ مَشْغولٌ بِلَهْوِهِ وَمَرَحِهِ ، وَرِفاقِهِ الَّذينَ ما صادَقوهُ إلا بِسَبَبِ هَذا المال ، فَصاروا يَتَحَلَّقونَ حَوْلَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَيُزَيِّنونَ لَهُ ما يَفْعَلُهُ ، وَيَمْتَدِحونَ كُلَّ أَقْوالِهِ ، وَكَأَنَّهُ الحَكيمُ الأَريبُ .

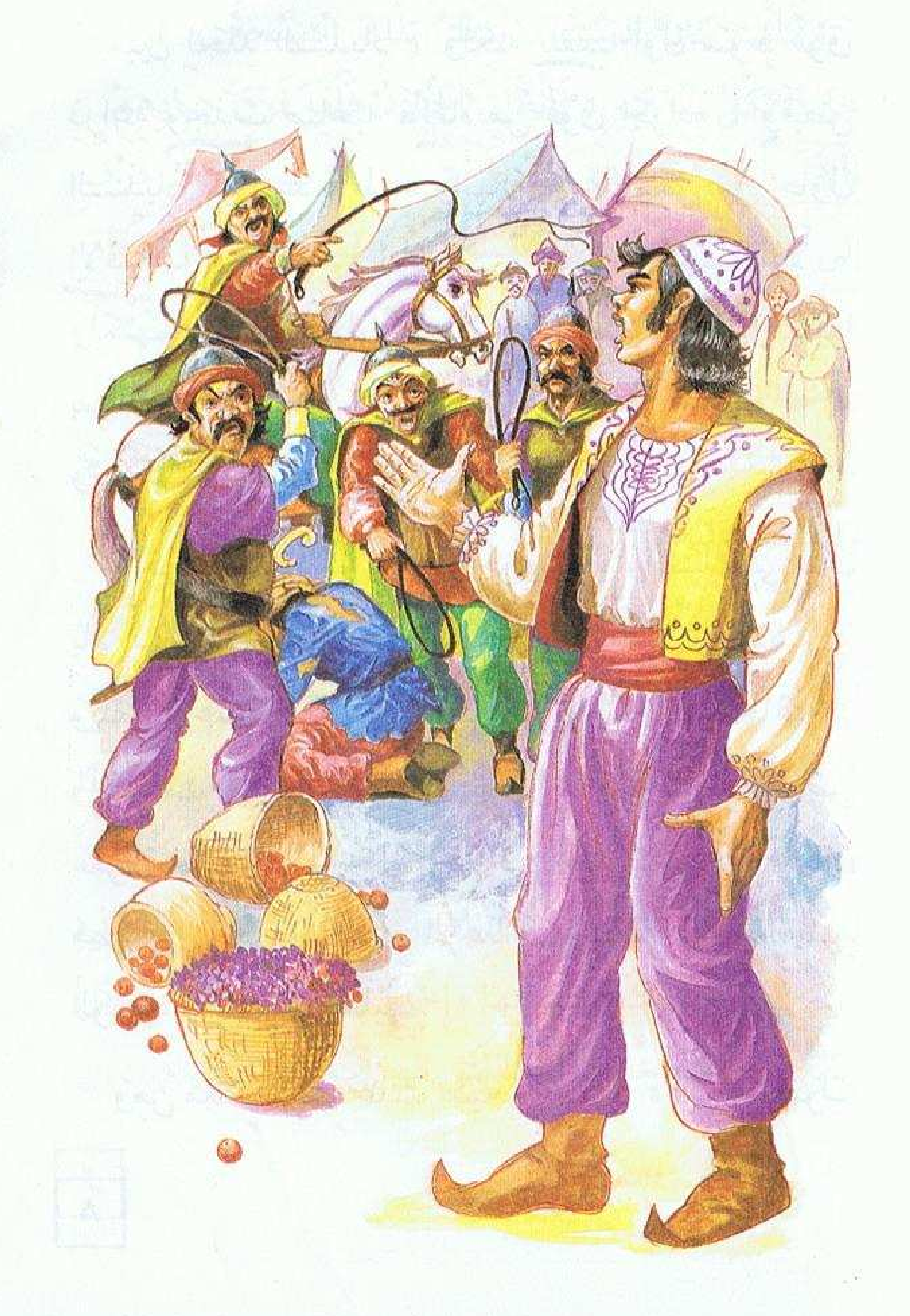
وَلَكِنْ بِرَغْمِ ما اشْتُهِرَ بِهِ السِّنْدِبادُ مِنْ لَهْوٍ وَتَعَطُّلٍ وَمَيْلٍ إِلى الحَياةِ الرَّغْدَةِ الهانِئَةِ دونَ مَشَقَّةٍ أَوْ تَعَبٍ ، فَقَدْ كانَ

يُمارِسُ رِياضاتٍ مُخْتَلِفَةً ، فَكانَ أَبْرَعَ صَحْبِهِ في السِّباحَةِ وَأَسْرَعَهُمْ في الجَرْيِ وَأَمْهَرَهُمْ في رَمْيِ السِّهام . وَأَعْطَتْهُ الرِّياضاتُ قَدًّا مُعْتَدِلاً وَنَشاطًا وَفيرًا . وَكانَ إِلى جانِبِ ذَلِكَ لا يُشيحُ بِوَجْهِهِ عَنْ فَقيرٍ وَلا يُقَتِّرُ عَلى مُحْتاجٍ أَوْ مَريضٍ . وَلا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ عَنْ تَقْديمِ العَوْنِ لِمَنْ يَحْتاجُهُ . وَكانَ أَكْثَرَ ما يَكْرَهُهُ ، أَنْ يَرى ظالِمًا يَبْغي عَلى مَظْلومٍ .

وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ السِّنْدِبادُ في جَمْعٍ مِنْ أَصْحابِهِ إِلى الأَسْواقِ القَريبَةِ مِنْ بَغْدادَ ، وَقَدِ انْتَوى أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْ حُرِّ مالِهِ ، ثَوْبًا فاخِرًا لِكُلِّ صاحِبٍ لَهُ ، فَيُهْدِيَهُ لَهُ عُرْبونًا لِلصَّداقَةِ وَالمَحَبَّةِ .

وَما إِنْ خَطا السِّنْدِبادُ داخِلاً السّوقَ ، حَتّى تَصاعَدَتْ جَلَبَةٌ وَعَلا صُراخٌ ، وَظَهَرَ بَعْضُ الجُنودِ ، وَهُمْ يَضْرِبونَ أَحَدَ البائِعينَ ضَرْبًا شَديدًا ، وَيُنَكِّلونَ بِهِ تَنْكيلاً قَوِيًّا ؛ انْتِقامًا مِنْهُ إِذْ رَدَّ عَلى أَحَدِهِمْ سِبابَهُ وَشَتائِمَهُ ، وَرَفَضَ أَنْ يَبيعَ لَهُ .

فَغَضِبَ السِّنْدِبادُ ، وَغَلى الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَقالَ



لأصحابه : « لا يَحِقُّ لِلجُنودِ مُعامَلَةُ الباعَةِ المَساكين بِمِثْلِ تِلْكَ القَسْوَةِ ، وَعَلَيْنا إيقاف هؤلاءِ الجُنودِ عمّا يَفْعلونَ ، وَلو اضْطُرِرْنا لِخَوْضِ مَعْرَكَةٍ ضِدَّهُمْ . »

فَصاحَ رِفاقُ سِنْدبادَ فيهِ مُرْتَعِبين : « لا شَأْنَ لَنا بِهذا الأمْرِ ، فَدَعْنا نَهْرُبُ مِنْ وُجوهِ هؤُلاءِ الجُنودِ ، وَإلا نالَنا مِنْ سِياطِهِمْ نَصيبٌ . »

وَانْدَفَعوا هاربينَ تاركينَ السِّنْدبادَ وَحْدَهُ ؛ فَتَضاعَفَ غَضَبُهُ وَقالَ لِنَفْسِهِ : « تَبًّا لِمِثْلِ هَؤُلاءِ الأصْدِقاءِ ، الَّذينَ يَفِرّونَ كالأرانِبِ ، إذا ما لاحَ الذِّئْبُ مِنْ بَعيدٍ . »

وَصَرَخَ في الجُنودِ : « تَوَقَّفوا عَمّا تَفْعَلونَ . »

فَاجْتَذَبَتْ صَرْخَتُهُ انْتِباهَ الجُنودِ ، وَوَلَّوا وُجوهَهَمْ شَطْرَهُ ، وَقَدْ زادَ غَضَبُهُمْ وَانْقَلَبَتْ سَحَناتُهُمْ ، وَصاحَ قائِدُهُمْ وَهُوَ يُشيرُ لِسِنْدبادَ بِطَرَفِ سَوْطِهِ : « إنَّهُ الفَتى سِنْدِبادُ ، وَهُوَ في حاجَةٍ إلى تَأْديبٍ ، لِيَكُفَّ عَنِ التَّدَخُّلِ فيما لا يَعْنيهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِهِ ، أيُّها الجُنودُ . »

فانْطَلَقَ الجُنودُ فَوْقَ جِيادِهِمْ ، رافِعينَ سِياطَهُمْ ، مُتأهِّبينَ لِجَلْدِ السِّنْدِبادِ ، وَلَكِنَّهُ تَلَقَّفَ أوَّلَ سَوْطٍ فَوْقَ ذِراعِهِ وَجَذَبَ صاحِبَهُ فَألْقاهُ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، وَقَبَضَ السِّنْدِبادُ عَلى السَّوْطِ ، وَانْهالَ بِهِ عَلى كُلِّ مَنْ حاوَلَ الاقْتِرابَ مِنْهُ ، مِنَ الجُنودِ ، فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ قَليلاً ، وَلَكِنَّهُمْ عادوا يُحيطونَ بِهِ في دائِرَةٍ مُحْكَمَةٍ ، وَانْهالوا بِسِياطِهِمْ فَوْقَهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، فَسَقَطَ مِنْهُ سَوْطُهُ ، وَتَمَزَّقَتْ مَلابِسُهُ وَدَمِيَ وَجْهُهُ وَذِراعاهُ .

وَلكِنَّ السِّنْدِبادَ لَمْ يَأْبَهْ بِما جَرى لَهُ ، وَاشْتَبَكَ في قِتالٍ بِالأيْدي مَعَ الجُنودِ وَهُوَ يَجْذِبُهُمْ مِنْ فَوْقِ جِيادِهِمْ ، وَيُلْقيهِمْ عَلى الأرْضِ ، وَلَكِنَّ كَثْرَتَهُمْ فاقَتْ شَجاعَتَهُ ، وَأوْشَكَتْ قُوى السِّنْدِبادِ أنْ تَخورَ ، فَأدْرَكَ أنَّهُ يَخوضُ مَعْرَكَةً يائِسَةً ، وَأنَّهُ لَوْ وَقَعَ في أيْدي الجُنودِ ؛ لَكانَ مَصيرُهُ السِّجْنَ المُؤَبَّدَ أوِ الإعْدامَ ، بِتُهْمَةِ مُقاوَمَةِ جُنودِ الوَزيرِ ، وَالاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ .

وَمِنْ مَكانٍ قَريبٍ عَلَتْ صَيْحَةٌ تَقولُ : « أسْرِعْ بِالهَرَبِ

وَالنَّجاةِ بِنَفْسِكَ ، أيُّها السِّنْدِبادُ . »

وَكَأنَّما كانَ السِّنْدِبادُ يَنْتَظِرُ تِلْكَ الصَّيْحَةَ ، فَأسْرَعَ جارِيًا بِكُلِّ سُرْعَتِهِ ، فَانْطَلَقَ الجُنودُ خَلْفَهُ فَوْقَ جِيادِهِمْ . فَأخَذَ السِّنْدِبادُ يَعْدو مِنْ طَريقٍ إلى طَريقٍ ، وَمِنْ دَرْبٍ إلى زُقاقٍ ، حَتّى ألْفى نَفْسَهُ أخيرًا قَدْ صارَ داخِلَ زُقاقٍ مَسْدودٍ ، فَأصابَهُ اليَأسُ وَأوْشَكَ عَلى الاسْتِسْلامِ ، وَأصْواتُ سَنابِكِ خُيولِ الجُنودِ المُطارِدينَ تَبْلُغُ أذُنَيْهِ في دَوِيٍّ شَديدٍ ، وَأصْحابُها يوشِكونَ عَلى وُلوجِ الزُّقاقِ ، وَالقَبْضِ عَلَيْهِ .

وَلَكِنْ فَجْأةً انْفَتَحَ بابٌ قَريبٌ ، وَامْتَدَّتْ يَدٌ فَجَذَبَتِ السِّنْدِبادَ إلى الدّاخِلِ ، وَعاوَدَتْ إغْلاقَ البابِ .

وَعِنْدَما اقْتَحَمَ جُنودُ الوَزيرِ الزُّقاقَ ، وَجَدوهُ خالِيًا وَأبْوابُهُ موصَدَةً . فَصاحَ قائِدُ الجُنودِ في رِجالِهِ : « لا بُدَّ أنَّ هَذا الفَتى المُشاغِبَ سِنْدِباد قَدِ اخْتَفى داخِلَ أحَدِ هَذِهِ البُيوتِ ، وَعَلَيْكُمْ بِتَفْتيشِها واحِدًا وَراءَ الآخَرِ ، وَالوَيْلُ لِمَنْ نَجِدُهُ قَدْ أخْفى ذَلِكَ الفَتى الهارِبَ . »

وَلَكِنَّ التَّفْتيشَ لَمْ يُسْفِرْ عَنْ شَيْءٍ . وَبَعْدَ ساعاتٍ اضْطُرَّ جُنودُ الوَزيرِ إلى الانْصِرافِ آسِفينَ .

وَامْتَدَّتْ يَدٌ تُزيحُ الغِطاءَ عَنْ إحْدى الجِرارِ الكَبيرَةِ في إحْدى حُجُراتِ مَنْزِلٍ قَريبٍ ، فَظَهَرَ السِّنْدِبادُ مُخْتَفِيًا داخِلَ الجَرَّةِ . وَرَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ داخِلِها ، وَتَساءَلَ قَلِقًا : « هَلْ غادَرَ جُنودُ الوَزيرِ المَكانَ ؟»

فَأَوْمَأَ مُنْقِذُهُ بِرَأْسِهِ وَقالَ : « لَقَدْ فَتَّشوا المَكانَ ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِبالٍ أَنْ يَبْحَثوا داخِلَ هَذِهِ الجَرَّةِ ، وَهَذا حالُ الأَغْبِياءِ دائِمًا ، فَإِنَّ عُيونَهُمْ تَعْمى عَمّا يَبْتَغونَ ، وَلَوْ كانَ الشَّمْسَ السّاطِعَةَ في السَّماءِ . »

فَغادَرَ السِّنْدِبادُ مَخْبَأَهُ ، وَتَأَمَّلَ مُنْقِذَهُ فَوَجَدَهُ شَيْخًا في الخَمْسينَ مِنْ عُمْرِهِ ، تَكْسو وَجْهَهُ مَهابَةٌ وَوَقارٌ ، وَيَسْكُنُ عَيْنَيْهِ السَّوْداوَيْنِ حُزْنٌ عَجيبٌ غامِضٌ ، وَيُجَلِّلُ شَعْرَ رَأْسِهِ وَلِحْيَتَهُ القَصيرَةَ بَياضٌ في لَوْنِ الحَليبِ ، وَقَدْ لَوَّحَتِ الشَّمْسُ وَجْهَهُ فَصارَ بِلَوْنِ البُرونْزِ ، مِمّا يَقْطَعُ بِأَنَّهُ خاضَ أَسْفارًا طَويلَةً .

فَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « شُكْرًا لَكَ ، أَيُّها الرَّجُلُ الكَريمُ ، لَقَدْ ساقَكَ القَدَرُ لي في لَحْظَةٍ مُناسِبَةٍ . »

فَأَجابَهُ الشَّيْخُ : « بَلْ لَعَلَّ القَدَرَ هُوَ الَّذي ساقَكَ إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَسوقَني إِلَيْكَ . »

لَمْ يَدْرِ السِّنْدِبادُ ما يَقْصِدُهُ الشَّيْخُ بِحَديثِهِ ، وَ واصَلَ مُحَدِّثُهُ قائِلاً : « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ الكَثيرَ ، يا سِنْدِبادُ ، وَعِنْدَما تَناهى إلى أُذُنَيَّ رَكْضُ الخُيولِ وَ وَقْعُ أَقْدامِكَ الهارِبَةِ ، وَصُراخُ الجُنودِ باسْمِكَ يَسْبِقُ ظُهورَهُمْ ، أَدْرَكْتُ أَنَّكَ في مَأْزِقٍ ، وَكانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيَّ إِنْقاذُكَ ، مَهْما يَكُنِ الخَطَرُ الَّذي يَتَرَصَّدُني بِسَبَبِ ذَلِكَ . وَلَكِنْ أَخْبِرْني لِماذا طارَدَكَ جُنودُ الوَزيرِ ، أَيُّها الفَتى ؟»

فَقَصَّ لَهُ السِّنْدِبادُ كُلَّ ما جَرى ، فَالْتَمَعَتْ عَيْنا الشَّيْخِ بِبَريقٍ عَجيبٍ ، وَقالَ لِلسِّنْدِبادِ وَهُوَ يُرَبِّتُ عَلى كَتِفِهِ في حَنانٍ : « هَكَذا الأَحْرارُ الشُّجْعانُ في كُلِّ مَكانٍ ، لا يَرْضَوْنَ بِالظُّلْمِ ، وَيَتَحَدَّوْنَ القُوَّةَ الباغِيَةَ ، حَتّى لَوْ

تَعَرَّضوا لِلْموتِ في سَبيلِ ذَلِكَ . »

وَهَزَّ رَأسَهُ المُجَلَّلَةَ بالوَقارِ دونَ أنْ يُقاطِعَهُ السِّنْدِبادُ ، وَأضافَ : « وَلَكِنّي لَوْ كُنْتُ مَكانَكَ ، ما أنْفَقْتُ مالي عَلى أصْحابي ، فَيأكُلونَ عَلى مَوائِدي وَيَنْعَمونَ بِأمْوالي ، ثُمَّ يَكونونَ أوَّلَ الهارِبينَ إذا ما نَزَلَتْ بي المِحَنُ وَداهَمَتْني الشَّدائِدُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ باسِمًا : « وَلَكِنَّهُمْ رِفْقَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَلَطالَما قَضَيْنا أوْقاتًا سَعيدَةً مَعًا ، وَسَمِعْتُ مِنْهُمُ الكَثيرَ مِنَ المَديحِ وَالكَلِماتِ المُسْكِرَةِ . »

فَأجابَهُ الشَّيْخُ : « إذَنْ فَتَعَلَّمْ أنْ تَحْتَرِسَ مِنَ المُنافِقينَ ، فَهُمْ كَالسُّكَّرِ الزّائِدِ ، يُفْسِدُ الصِّحَّةَ وَيَأتي بِالعِلَلِ ، إذا ما تَناوَلْنا مِنْهُ أكْثَرَ مِنْ حاجَتِنا . »

فَلَمْ يَجِدِ السِّنْدِبادُ ما يَقولُهُ ، وَغابَ الشَّيْخُ داخِلَ إحْدى الحُجُراتِ بُرْهَةً ، ثُمَّ عادَ بِما يُطَهِّرُ جِراحَ السِّنْدِبادِ ، وَأخْرَجَ مِنْ دولابِهِ ثَوْبًا ارْتَداهُ السِّنْدِبادُ بَدَلاً مِنْ

ثَوْبِهِ المُمَزَّقِ .

وَقالَ الشَّيْخُ لِلسِّنْدِبادِ : « لا شَكَّ أنَّكَ جائِعٌ بَعْدَ تِلْكَ المَعْرَكَةِ الَّتي خُضْتَها مَعَ جُنودِ الوَزيرِ . »

وَغابَ مَرَّةً أخْرى وَعادَ وَهُوَ يَحْمِلُ سَلَّةً قَدِ امْتَلأتْ بِكُلِّ أنْواعِ الفاكِهَةِ ، وَصَحْنًا كَبيرًا قَدْ فاضَ بِالثَّريدِ وَاللَّحْمِ . وَكانَ السِّنْدِبادُ في شِدَّةِ جوعِهِ ، فَانْقَضَّ عَلى الطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الْتِهامًا ، حَتّى أتى عَلَيْهِ . وَبَعْدَ أنْ غَسَلَ يَدَيْهِ تَطَلَّعَ إلى مُنْقِذِهِ في حَيْرَةٍ وَسَألَهُ : « وَلَكِنْ أخْبِرْني مَنْ تَكونُ ، أيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ ، وَلِماذا غامَرْتَ بِإنْقاذي وَعَرَّضْتَ حَياتَكَ لِلْخَطَرِ بِسَبَبي ، دونَ سابِقِ مَعْرِفَةٍ ؟ »

فَأجابَهُ مُضيفُهُ في لَهْجَةٍ لا تَكْشِفُ سِرًا : « إنَّني عَبْدٌ مِنْ عِبادِ اللهِ ، أجولُ في البِلادِ وَأبْحَثُ بَيْنَ العِبادِ ، فَأمْتَطي البِحارَ وَتَدْفَعُني الرِّياحُ وَتَتَلَقَّفُني الشَّواطِئُ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ . »

فَتَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ مِمّا قالَهُ الشَّيْخُ ، وَلَمْ تُفْصِحْ لَهُ إجابَتُهُ عَنْ شَيْءٍ ، بَلْ زادَتْ مِنْ غُموضِهِ وَسِرِّهِ .

وَشَعَرَ السِّنْدِبادُ بِنُعاسٍ ثَقيلٍ يُطْبِقُ عَلَيْه ، فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَتَمَدَّدَ مَكانَهُ وَغَرِقَ في نَوْمٍ عَميق . ثُمَّ أَفاقَ دونَ أَنْ يَدْري كَمْ مِنَ الوَقْتِ غَلَبَهُ النَّوْمُ . وَتَنَبَّهَ إلى أَصْواتِ المُنادينَ وَهُمْ يَدُقّونَ طُبولَهُمْ ، صائِحينَ في سُكّانِ الزُّقاق :

« لَقَدْ قَرَّرَ الوَزيرُ مُكافَأَةً قَدْرُها مائَةُ دينار مِنَ الذَّهَب ، لِمَنْ يُرْشِدُ عَنْ مَكانِ السِّنْدِبادِ الهارِب ، أَوْ يَقومُ بِتَسْليمِه لِرِجالِ الشُّرْطَةِ ، كما أَعْلَنَ مُصادَرَةَ كُلِّ أَمْلاكِ السِّنْدِباد وَأَمْوالِه . »

فَانْكَمَشَ السِّنْدِبادُ مَكانَهُ وَأَصابَهُ الذُّعْرُ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ بِما فَعَلَهُ كُلَّ مالِه ، وَصارَ مُهَدَّدًا في حُرِّيَّتِهِ وَحَياتِه أَيْضًا . وَقالَ لِنَفْسِهِ وَقَدْ رَكِبَهُ شَيْءٌ مِنَ الخَوْفِ : « عَلَيَّ الهَرَبَ بِسُرْعَةٍ ، فَما يُدْريني أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْخَ الَّذي أَنْقَذَني قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ لِيُسَلِّمَني إلى جُنودِ الوَزيرِ ، لِيَنالَ المُكافَأَةَ الَّتي تَوَقَّعَ رَصْدَها ، لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيَّ . »

وَما كادَ السِّنْدِبادُ يُغادِرُ مَكانَهُ، حَتّى سُمِّرَتْ قَدَماهُ

مَكانَها ، وَقَدْ شاهَدَ الشَّيْخَ الَّذي أَنْقَذَهُ يَدْخُلُ عَلَيْهِ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ مِنْ بابِ بَيْتِه .

وَقالَ الشَّيْخُ لِلسِّنْدِبادِ وَكَأَنَّهُ قَرَأَ أَفْكارَهُ : « لا تَخْشَ شَيْئًا ، أَيُّها الفَتى ، فَلَسْتُ مِنْ صائِدي المُكافَآتِ وَالجَوائِز . وَإذا شِئْتَ مُغادَرَةَ المَكانِ الآنَ ، فَافْعَلْ ، فَلَنْ أُعيقَكَ عَنِ الهَرَبِ بِأَيِّ حالٍ . »

فَجَمَدَ سِنْدِبادُ مَكانَهُ وَأَصابَهُ الخَجَلُ ، وَقالَ : « مَعْذِرَةً ، يا سَيِّدي ، فَقَدْ أَعْماني الإحْساسُ بِالْخَطَرِ عَنْ إدْراكِ الحَقيقَةِ ، وَصِرْتُ لا هَمَّ لي سِوى الهَرَب . »

فَقالَ الشَّيْخُ : « إنَّني أَلْتَمِسُ لَكَ العُذْرَ ، فَأَنْتَ في خَطَرٍ داهِمٍ، يا سِنْدِبادُ ، فَقَدْ خَرَجْتُ في جَوْلَةٍ بِالأَسْواقِ ، وَرَأَيْتُ كَثيرًا مِنَ الجُنودِ يُفَتِّشونَ عَنْكَ في كُلِّ مَكانٍ ، وَهُمْ يُقْسِمونَ أَنَّكَ لَوْ وَقَعْتَ في أَيْديهِمْ ، لَقَتَلوكَ لِساعَتِكَ ، فَقَدْ أَمَرَ الوَزيرُ بِذَلِكَ ، عِقابًا لَكَ . »

فَتَضاعَفَ تَوَتُّرُ السِّنْدِباد وَقالَ حَزينًا : « وَما العَمَلُ الآنَ ، وَإلى أَيْنَ المَفَرُّ وَالنَّجاةُ ، وَقَدْ صادَرَ الوَزيرُ كُلَّ

أمْوالي ؟ وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّني إذا الْتَجأْتُ إلى أصْدِقائي ، كانوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يَقومُ بِتَسْليمي لِلْوزيرِ ذاتِه ، بِسَبَبِ جُبْنِهِمْ وَخِسَّتِهِمْ . »

وَأطْرَقَ بِرَأسِهِ لَحْظَةً ، ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَهُ وَقَدِ اتَّسَعَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ الأمَلِ ، وَقالَ : « وَلَكِنّي لَوْ لَجأْتُ لِلْخَليفَةِ (هارونَ الرَّشيدِ) أوْ قاضي القُضاةِ ، وَحَكَيْتُ لَهُما عَمّا حَدَثَ لَناصَراني ، وَقاما بِحِمايَتي ، وَدَفْعِ الظُّلْمِ عَنّي ، وَرَدّا إليَّ كُلَّ ما سُلِبَ مِنّي . »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « لا سَبيلَ إلى ذَلِكَ الآنَ ، فَإنَّ الخَليفَةَ وَقاضِيَ القُضاةِ قَدْ غادَرا بَغْدادَ في رِحْلَةٍ ، وَلَنْ يَعودا قَبْلَ شُهورٍ . »

فَتَضاعَفَ إحْساسُ السِّنْدبادِ باليَأسِ ، وَدَفَنَ رَأسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ في حُزْنٍ مَريرٍ وَقالَ : « وَما العَمَلُ الآنَ ، وَكَأنَّ كُلَّ سُبُلِ النَّجاةِ وَالحَياةِ قَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ مُطَمْئِنًا : « لا تَخْشَ شَيْئًا ، يا سِنْدِبادُ ،

فَكُلَّما سُدَّتِ السُّبُلُ وَانْقَطَعَتْ خُيوطُ الرَّجاءِ ، كانَ ذَلِكَ إيذانًا بِقُرْبِ قُدومِ الفَرَجِ . »

فَوَلْوَلَ السِّنْدِبادُ قائلاً : « ضاعَ مُسْتَقْبَلي وَكُلُّ مالي . »

فَأجابَهُ الشَّيْخُ في يَقينٍ : « المُسْتَقْبَلُ يَنْتَظِرُ دائمًا مَنْ لَهُ القُدْرَةُ عَلى التَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ عَلى المَكارِهِ ، وَقَدْ كانَ مالُكَ مَصيرُهُ إلى زَوالٍ عَلى أيِّ حالٍ ، بِإنْفاقِكَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ السَّفَهِ . »

نَكَّسَ السِّنْدِبادُ رَأسَهُ حَزينًا وَقالَ : « لَيْسَ أمامي الآنَ غَيْرُ مُغادَرَةِ بَغْدادَ ، بَلِ العِراقِ بِأسْرِها ، لِلنَّجاةِ بِحَياتي . »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقالَ : « وَكَأنَّكَ تَقْرَأُ أفْكاري ، يا سِنْدِبادُ . »

فَتَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ في أمَلٍ وَسَألَهُ :

« هَلْ يُمْكِنُكَ أنْ تُساعِدَني ، أيُّها الشَّيْخُ الجَليلُ في هَذا الأمْرِ ؟ »

فَتَبسَّمَ الشَّيْخُ : « لِهَذا أخبَرْتُكَ مِنْ قبل أنَّ القدَرَ ساقَكَ إليَّ . . ولَكِنْ أيْنَ تَنْوي الرَّحيلَ ، يا سِنْدِبادُ ؟ »

قالَ السِّنْدِبادُ حائِرًا : « لَسْتُ أدْري . إلى أيِّ مَكانٍ بَعيدٍ عَنِ العِراقِ ، لا تَطولُني فيهِ يَدُ الوَزيرِ . »

أَوْمَأَ الشَّيْخُ بِرأسِهِ مُوافِقًا وقالَ : « في الغَدِ تَكونُ رِحْلَتُنا إلى البَصْرَةِ ، وَمِنْها سَنُسافِرُ بَحْرًا إلى أبْعَدَ مِمّا تَتَخَيَّلُ يا سِنْدِبادُ ، فَلا تَقْلَقْ بِشَأْنِ هَذا الأمْرِ . »

فَابْتَلَعَ السِّنْدِبادُ دَهْشَتَهُ وَجَفَّ حَلْقُهُ ، وَانْتابَتْهُ بَعْضُ الشُّكوكِ ، فَسَأَلَ مُضيفَهُ : « وَلَكِنْ كَيْفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنْ مُغادَرَةِ بَغْدادَ ، وَجُنودُ الوَزيرِ يَبْحَثونَ عَنّي في كُلِّ شِبْرٍ فيها ، وَيُحاصِرونَ كُلَّ مَداخِلِها وَمَخارِجِها ، وَلَنْ تَعْمى عُيونُهُمْ عَنْ رُؤْيَتي أبَدًا ، مَهْما أفْعَلْ أوْ أتَخَفَّ ؟ »

فَقالَ الشَّيْخُ مُتَرَفِّقًا : دَعْ عَنْكَ القَلَقَ ، يا سِنْدِبادُ ، وَاتْرُكْ لي هَذِهِ المُهِمَّةَ ، فَما أهْوَنَها بِالنِّسْبَةِ لِما لاقَيْتُ مِنْ مَشاقَّ وَمَخاطِرَ وَصِعابٍ ، وَما واجَهْتُ مِنْ أهْوالٍ

وَنوازِلَ . »

وَرَفَعَ أُصْبُعَهُ في وَجْهِ السِّنْدِبادِ مُضيفًا : « تَذَكَّرْ أنَّهُ مَهْما تَكُنْ يَدُ الظُّلْمِ قَوِيَّةً ، فَيَدُ اللهِ أقْوى ، فَلا تَفْقِدِ الأمَلَ أبَدًا في رَحْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ . »

وَرَقَدَ في فِراشٍ قَريبٍ وَهُوَ يَقولُ : « وَالآنَ فَلْتَنْعَمْ بِنَوْمٍ هانِئٍ ، أيُّها السِّنْدِبادُ ، فَأمامَنا في الغَدِ مُهِمَّةٌ شاقَّةٌ . »

وَلَكِنْ كَيْفَ كانَ لِلْفَتى المُتَوَتِّرِ سِنْدِبادَ أنْ يَنْعَمَ بِالنَّوْمِ ، وَقَدْ صارَ مَصيرُهُ مُعَلَّقًا بِذَلِكَ الشَّيْخِ الغامِضِ ، الَّذي لا يَدْري مِنْ أمْرِهِ شَيْئًا وَلا يَعْرِفُ حَتّى اسْمَهُ وَلا مِنْ أيْنَ سَيَمْضي بِهِ ؟

الفصلُ الثّاني
الرَّحيلُ إلى المَجْهولِ

لَمْ يَغْمُضْ لِلسِّنْدِبادِ جَفْنٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَهُوَ مُمَدَّدٌ عَلى فِراشِهِ يُصارِعُ القَلَقَ وَالأفْكارَ السَّوْداءَ .

وَقُرابَةَ الفَجْرِ – وَقَدْ أوْشَكَ على إغْماضِ عَيْنَيْهِ – شاهَدَ مُضيفَهُ يُغادِرُ فِراشَهُ في هِمَّةٍ وَنَشاطٍ ، وَكَأنَّهُ في مُهِمَّةٍ عاجِلَةٍ لا تَحْتَمِلُ الإبْطاءَ ؛ فَتَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ مِمّا رَأى ، وَلَمْ يَدْرِ سِرَّ ذَهابِ الشَّيْخِ . وَرَآهُ يَعودُ بَعْدَ ساعَةٍ بِوَجْهٍ باسِمٍ وَمَلامِحَ مُطْمَئِنَّةٍ ، وَقالَ لِلسِّنْدِبادِ : « لَقَدْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ كَما أرادَ اللهُ . »

لَمْ يَشَأِ السِّنْدِبادُ أنْ يَسْألَهُ عَمّا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ ، وَلا سِرِّ خُروجِهِ في الفَجْرِ . وَقالَ سائِلاً : « مَتى سَنُغادِرُ بَغْدادَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ بِالضَّبْطِ . »

فَسَألَهُ السِّنْدِبادُ قَلِقًا : « وَكَيْفَ سَنَتَوارى عَنْ عُيونِ الجُنودِ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « وَمَنْ قالَ إنَّنا في حاجَةٍ لِلتَّواري وَالاخْتِباءِ ؟ »

ازْدادَ قَلَقُ السِّنْدِبادِ ، وَسَألَ مُضيفَهُ : « ماذا تَعْني بِقَوْلِكَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « ما أعْنيهِ واضِحٌ لا يَحْتاجُ لِتَفْسيرٍ أوْ بَيانٍ . فَلَسَوْفَ تُغادِرُ بَغْدادَ ، يا سِنْدِبادُ ، سافِرَ الوَجْهِ مَكْشوفَ الشَّخْصِيَّةِ ، يَراكَ كُلُّ إنْسانٍ ، فَيَكونُ في ذَلِكَ رَدٌّ لاعْتِبارِكَ ، لِيَعْرِفَ كُلُّ إنْسانٍ في العِراقِ أنَّكَ لَمْ تُغادِرْها هارِبًا مُتَخَفِّيًا . »

قَفَزَ السِّنْدِبادُ مِنْ مَكانِهِ صارِخًا : « ماذا قُلْتَ ، أيُّها الرَّجُلُ ؟ أَمَجْنونٌ أنْتَ ؟ »

التَمَعَتْ تِلْكَ النَّظْرَةُ الغَريبَةُ في عَيْنَيِ الشَّيْخِ وَقالَ : « قَدْ يَكونُ الجُنونُ لِشَخْصٍ ما ، هِيَ الحِكْمَةَ بِعَيْنِها

لآخَرَ !»

صاحَ السِّنْدِبادُ غاضِبًا : « دَعْكَ مِنْ هَذِهِ الأقْوالِ الَّتي لا أفْقَهُ مِنْها شَيْئًا ، وَقُلْ لي إنْ كنتَ تَنْوي تَسْليمي لِلْجُنودِ !»

أجابَهُ الشَّيْخُ في نَبْرَةٍ هادِئَةٍ : « اسْأَلْ قَلْبَكَ إنْ كانَ ما يَنْطِقُ بِهِ لِسانُكَ هُوَ الحَقُّ الَّذي تَعْتَقِدُهُ .»

قالَ السِّنْدِبادُ بِاضْطِرابٍ : « وَلَكِنْ . . »

قاطَعَهُ الشَّيْخُ سائِلاً : « أَتَثِقُ بي أمْ لا ؟»

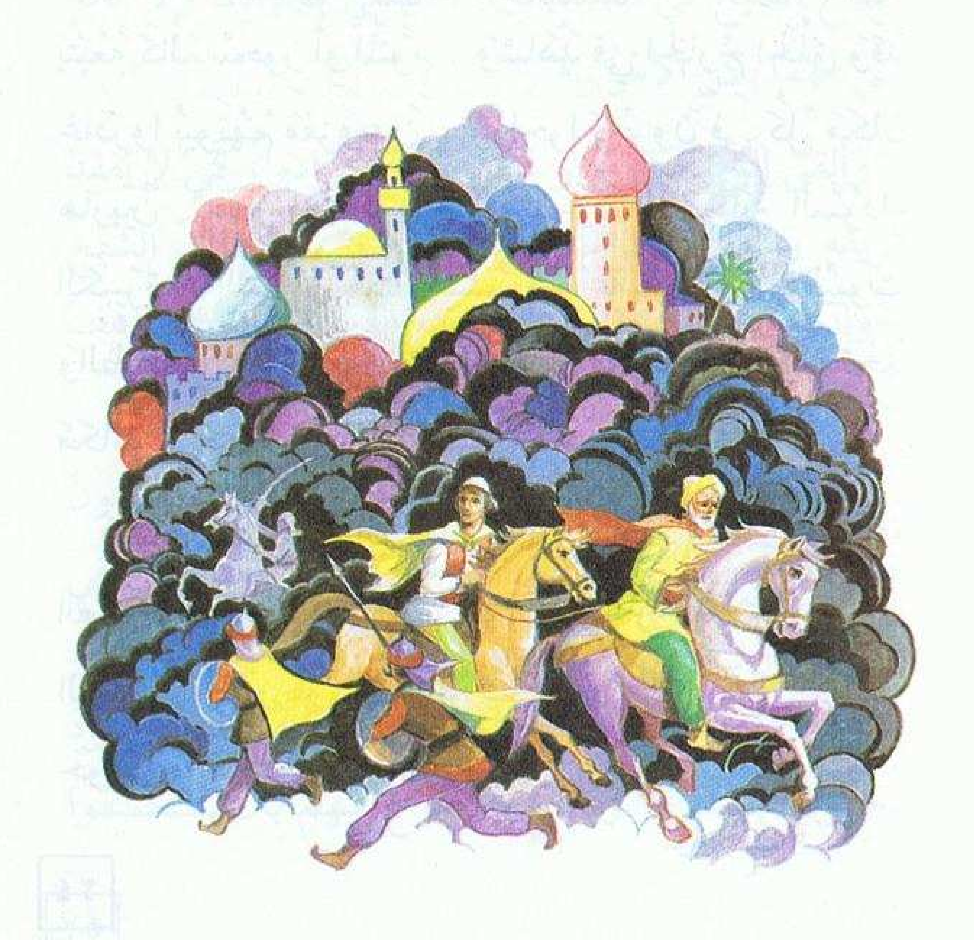
أجابَهُ السِّنْدِبادُ بِصَوْتٍ أشَدَّ اضْطِرابًا : « لَيْسَ لي سِواكَ أثِقُ بِهِ ، فَأَنْتَ رَجائِيَ الوَحيدُ ، وَلَوْ كانَ فيكَ هَلاكي .»

قالَ الشَّيْخُ بِنَفْسِ النَّبْرَةِ الهادِئَةِ : « إذَنْ دَعِ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ؛ فَإذا كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْري بِمَشيئَتِهِ فَعَلامَ القَلَقُ ؟»

وَظَلَّ السِّنْدِبادُ عَلى قَلَقِهِ وَالشَّيْخُ عَلى هُدوئِهِ حَتّى بانَتْ أوَّلُ خُيوطِ الشَّمْسِ . وَقالَ الشَّيْخُ كَأَنَّهُ يُحَدِّثُ

نَفْسَهُ : « ها قَدْ حانَتْ لَحْظَةُ مُغادَرَتِنا بَغْدادَ .»

أوْشَكَ السِّنْدِبادُ أنْ يَقولَ شَيْئًا ، وَلَكِنَّ الكَلِماتِ انْحَبَسَتْ فَوْقَ لِسانِهِ ، عِنْدَما دَوّى انْفِجارٌ شَديدٌ هَزَّ المَكانَ هَزًّا ، وَعَلَتْ سَحابَةٌ سَوْداءُ في السَّماءِ ، فَأَوْشَكَتْ لِكَثافَتِها أنْ تَحْجُبَ ضَوْءَ الشَّمْسِ الوَليدِ ؛



فَقفَزَ السِّندِبادُ مِنْ مَكانِهِ صائِحًا في ذُهول : « ما الَّذي جَرى ، وَما سِرُّ هَذا الانْفِجارِ وَتِلْكَ السَّحابَةِ الَّتي حَجَبَتِ الشَّمْسَ ؟ »

جَذَبَهُ الشَّيْخُ مِنْ يَدِهِ قائِلاً : « هَيّا ، يا سِنْدِبادُ ، فَقَدْ حانَ أوانُ الرَّحيلِ وَلا وَقْتَ الآنَ لِطَرْحِ الأسْئِلَةِ . »

وَجَذَبَهُ مِنْ يَدِهِ وَغادَرَ المَنزِلَ ، فَسارَ السِّنْدِبادُ خَلْفَهُ يَتْبَعُهُ كالْمَسْحورِ أوِ الْمُنوَّمِ . وَشاهَدَ في الخارِجِ الخَلْقَ وَقَدْ غادَروا بُيوتَهُمْ مَفزوعينَ ، وَراحوا يَجْرونَ في كُلِّ مَكانٍ هاربينَ صارخينَ ، وَهُمْ يُشيرونَ لِلسَّحابَةِ السَّوْداءِ الكَبيرَةِ ، الَّتي راحَتْ تَنْتَشِرُ بِسُرْعَةٍ فَوْقَ كُلِّ البُيوتِ وَالطُّرُقاتِ ، وَالنّاسُ لا تَدْري سِرَّ ما حَدَثَ ، وَلا تَجِدُ مَكانًا لِلاخْتِفاءِ مِنْ ذَلِكَ الهَوْلِ .

وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ السَّحابَةَ السَّوْداءَ وَقَدْ أحالَتْ إشْراقَةَ الصَّباحِ إلى لَيْلٍ، وَكَأنَّما عادَتْ أسْتارُ الظَّلامِ في أوَّلِ النَّهارِ، حَتّى أوْشَكَ الرّاكِضونَ، ألا يَرَوْا الأشْياءَ حَوْلَهُمْ، إلا عِنْدَ اصْطِدامِهِمْ بِها .

وَصاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « أسْرِعْ ، فَهُناكَ جَوادانِ قَوِيّانِ في انْتِظارِنا . »

وَكانَ الجَوادانِ مَرْبوطَيْنِ في شَجَرَةٍ قَريبَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الزُّقاقِ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَكٍّ أنَّ الشَّيْخَ الغَريبَ قَدْ جَهَّزَهُما مِنْ قَبْلُ ، فَامْتَطى أوَّلَهُما وامْتَطى السِّنْدِبادُ الآخَرَ ، وَصاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « اِتْبَعْني بِجَوادِكَ وَلا تَحِدْ عَنّي مَهْما يَكُنِ الأمْرُ . »

وَألْقى إلَيْهِ بِحَبْلٍ مَرْبوطٍ في سَرْجِ جَوادِهِ ، كَيْ لا يَفْقِدَ طَريقَهُ وَراءَهُ وَسْطَ سَحاباتِ الظَّلامِ ، وَانْطَلَقَ الشَّيْخُ بِجَوادِهِ وَالسِّنْدِبادُ يَتْبَعُهُ راكِبًا وَهُوَ يَلْكُزُ جَوادَهُ لِيُضاعِفَ سُرْعَتَهُ .

وَجَزِعَ السِّنْدِبادُ عِنْدَما شاهَدَ عَدَدًا مِنَ الجُنودِ يُهْرَعونَ مَفْزوعينَ مِنْ قَلْبِ عَتَمَةِ الظَّلامِ ، راكِبينَ وَمُتَرَجِّلينَ في اتِّجاهِهِ . وَخَشِيَ أنْ يَنْقَضّوا عَلَيْهِ فَأوْشَكَ عَلى تَرْكِ الحَبْلِ وَالانْطِلاقِ إلى جِهَةٍ أخْرى . وَلَكِنَّهُ شاهَدَ الجُنودَ يَتَّجِهونَ بَعيدًا ، وَقائِدُهُمْ يَصْرُخُ فيهِمْ بِأنْ يَسْتَكْشِفوا

سِرَّ ذَلِكَ الانْفِجارِ ، وَهُمْ لا يَعْبَئون بِشَيْءٍ إلا النَّجاة بِأنْفُسِهِمْ .

وَبَعْدَ لَحظاتٍ ، بَلَغَ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ رُكْنًا نائِيًا مِنْ نَهْرِ دِجْلَة ، وَقَدْ تَبَدَّدَ شَيْءٌ كَثيرٌ مِنَ السَّحابَةِ السَّوْداء ، وَدَفَعَتْها الرِّياحُ بَعيدًا ، وبانَتِ المَعالِمُ في شَكْلٍ كالضَّباب ، فَلَمَحَ سِنْدِبادُ شاطِئَ النَّهْرِ وَقَدْ رَسَتْ إلَيْهِ سَفينَةٌ صَغيرَةٌ ، ما إنْ بَلَغا مَرْساها حَتّى صاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « دَعْ جَوادَكَ وَلْنَلْجَأْ إلى هَذِهِ السَّفينَةِ . »

فَفَعَلَ السِّنْدِبادُ كَما أَمَرَهُ الشَّيْخُ ، وَما إن اسْتَقَرّا داخِلَ السَّفينَةِ حَتّى دَسَّ الشَّيْخُ في يَدِ صاحِبِها قَبْضَةً مِنَ المال ، فَلَمْ يَبْدُرْ مِنْهُ أيُّ سُؤال ، وَرَفَعَ مِرْساةَ سَفينَتِهِ ، فَانْطَلَقَتْ تَقْطَعُ النَّهْرَ جَنوبًا بِأَشْرِعَةٍ امْتَلأتْ بِالرِّياح ، وَهِيَ لا تَحْمِلُ سِوى راكِبَيْنِ اثْنَيْنِ ، هُما السِّنْدِبادُ وَصاحِبُهُ .

وَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخ ، وَقَدْ غابَتْ بَغْدادُ بِقُصورِها وَمَبانيها وحَدائِقِها عَنْ عَيْنَيْهِ : « أخْبِرْني ، أيُّها الرَّجُلُ ، هَلْ أنْتَ ساحِرٌ ؟ »

فَسَألَهُ الشَّيْخُ في مَكْرٍ بِلَهْجَةِ مَنْ يُدْرِكُ مَغْزى السُّؤالِ : « وَلِماذا تَظُنُّ ذَلِكَ ؟ »

أجابَهُ السِّنْدِبادُ لاهِثًا : « تِلْكَ السَّحابَةُ الَّتي اصْطَنَعْتَها فَوْقَ مَدينَةِ بَغْدادَ فَأعْمَتْ أبْصارَ الجُنودِ عَنّا ، وَذَلِكَ الانْفِجارُ الَّذي صَرَفَهُمْ عَنِ الاهْتِمامِ بِنا . أ لَيْسَ ذَلِكَ هُوَ السِّحْرَ بِعَيْنِه ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ في تُؤَدَةٍ : « إنَّهُ لَيْسَ سِحْرًا ، بَلْ عِلْمًا . »

صاحَ السِّنْدِبادُ في جَهْلٍ : « عِلْمٌ ؟ »

واصَلَ الشَّيْخُ في تُؤَدَةٍ : « وَما أوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلا قَليلاً . »

قالَ السِّنْدِبادُ حائِرًا : « لَسْتُ أفْهَمُ ما تَعْنيهِ . »

قالَ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ ، وَعَيْناهُ تَضُمّانِ أسْرارًا لا حَصْرَ لَها : « إنَّهُ البارودُ . »

انْدَهَشَ السِّنْدِبادُ لِلإجابَةِ وَتَساءَلَ مُكَرِّرًا : « البارودُ .

وَما هُوَ البارودُ ؟»

قالَ الشَّيْخُ في ابْتِسام : « هُوَ مَسْحوقٌ يَتَفَجَّرُ في دَويٍّ شَديدٍ وَيَصْنَعُ مِثْلَ تِلْكَ السَّحابَةِ السَّوْداءِ ، إذا مَسَّتْهُ النّارُ. وَقَد اسْتَأْجَرْتُ رَجُلاً ، طَلَبْتُ مِنْهُ إشْعالَ فَتيلِ البارودِ الطَّويلِ بَعيدًا عَنْ مَكانِ الانْفِجارِ ، عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ بِالضَّبْطِ ؛ حَتّى لا يُصابَ بِمَكْروهٍ . وَقَدْ جَعَلْتُ مَرْكَزَ انْفِجارِ البارودِ في مِنْطَقَةٍ عَلى أطْرافِ بَغْدادَ ، حَتّى لا يُصابَ أحَدُ الأبْرياءِ بِضَرَرٍ . »

ابْتَلَعَ السِّنْدبادُ لُعابَهُ في دَهْشَةٍ وَقالَ : « لَمْ أسْمَعْ عَنْ هَذا البارودِ مِنْ قَبْلُ . »

قالَ الشَّيْخُ في تَواضُعٍ : « أنا أيْضًا كُنْتُ مِثْلَكَ ، قَبْلَ أنْ أذْهَبَ إلى الصّينِ . »

تَساءَلَ السِّنْدبادُ لاهِثًا : « وَهَلْ ذَهَبْتَ إلى الصّينِ ؟ إنَّها كَما أسْمَعُ بِلادٌ بَعيدَةٌ جِدًّا . »

قالَ الشَّيْخُ مُتَبَسِّمًا : « هُناكَ بِلادٌ أبْعَدُ مِنَ الصّينِ

كَثيرًا ، وَقَدْ ذَهَبْتُ إلَيْها أيْضًا . »

عادَ السِّنْدبادُ يَسْألُ في إلْحاحٍ : « وَذَلِكَ البارودُ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ الانْفِجارِ ؟ »

أوْمَأ الشَّيْخُ بِرَأْسِهِ وَقالَ : « بَلْ يَفْعَلُ ما هُوَ أكْثَرُ . المُهِمُّ أنْ تَتَحَكَّمَ في الخَليطِ الَّذي تُجَهِّزُهُ مِنْهُ ، وَقَدْ قُمْتُ بِصِناعَتِهِ بِنَفْسي فَجَعَلْتُهُ يُحْدِثُ مِثْلَ ذَلِكَ الانْفِجارِ المَحْسوبِ ، مَصْحوبًا بِتِلْكَ السَّحابَةِ السَّوْداءِ مِنْ ناتِجِ الانْفِجارِ .

دَهِشَ السِّنْدبادُ مِمّا سَمِعَ وَقالَ : « لَوْ أنَّ أولَئِكَ الجُنودَ الَّذينَ كانوا يُطارِدونَني امْتَلَكوا هَذا البارودَ - لَتَعاظَمَ شَرُّهُمْ ، وَعاثوا في الأرْضِ فَسادًا ، وَلَكِنْ . . »

عَبَسَ الشَّيْخُ بِوَجْهِهِ وَقالَ : « لِهَذا احْتَفَظْتُ بِسِرِّهِ في قَلْبي ، وَلَمْ أسْتَخْدِمْهُ إلا لِلضَّرورَةِ . وَالآنَ سَيَظُنُّ أولَئِكَ الجُنودُ وَرِفاقُهُمْ وَ وَزيرُهُمْ أنْ نَيْزَكًا قَدْ سَقَطَ مِنَ السَّماءِ فَأحْدَثَ ذَلِكَ الانْفِجارَ وَالسَّحابَةَ السَّوْداءَ ، وَلَنْ يُكْتَشَفَ السِّرُّ أبَدًا ؟»

تأمَّلَ السِّنْدِبادُ مُحدِّثَهُ في دَهْشَةٍ وَسَألَهُ : « هَلْ تَحْتَفِظُ بِأسْرارِ أشْياءَ أخرى عَجيبةٍ مِثْلِ ذَلِكَ البارودِ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ بِتِلْكَ النَّظْرَةِ الغامِضَةِ : « لِكُلِّ أوانٍ سِلاحُهُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ . فَما أكْثَرَ الأسْرارَ الَّتي تَحْتَفِظُ بِها الطَّبيعَةُ وَسَيَبْلُغُها الإنسانُ يَوْمًا ما ، وَيُزيحُ السِّتارَ عَنْ دَقائِقِها . »

اِعْتَرَضَ السِّنْدِبادُ في إلْحاحٍ : « وَلَكِنْ . . »

قاطَعَهُ الشَّيْخُ في بِحَسْمٍ : « لا تَسْبِقِ الأحْداثَ ، يا سِنْدِبادُ ، ولا تَنْشَغِلْ بِما هُوَ آتٍ قَبْلَ مَجيئِهِ . »

فَصَمَتَ السِّنْدِبادُ وَأطْبَقَ شَفَتَيْهِ ، وَقَدْ تَعاظَمَ احْتِرامُهُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ . وَبَعْدَ أيّامٍ بانَتْ مَعالِمُ البَصْرَةِ وَميناؤُها الكَبيرُ ، فَقالَ الشَّيْخُ : « ها قَدْ وَصَلْنا إلى مُبْتَغانا . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « عَلَيْنا الرَّحيلَ فَوْقَ أوَّلِ سَفينَةٍ تُغادِرُ الميناءَ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ في هُدوءٍ : « سَوْفَ نُقَرِّرُ الرَّحيلَ عِنْدَما

نُتِمُّ عَمَلَنا . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ بِدَهْشَةٍ : « أيُّ عَمَلٍ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ وَكَأنَّهُ يُقَرِّرُ أمْرًا كانَ مَفْعولاً : « أنْ نَبْحَثَ عَنِ البَحّارَةِ اللازِمينَ . »

تَزايَدَتْ حَيْرَةُ السِّنْدِبادِ وَهُوَ يَسْألُ : « لازِمينَ لأيِّ شَيْءٍ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ في صَبْرٍ : « إنَّنا في حاجَةٍ لَهُمْ لِقِيادَةِ سَفينَةٍ طولُها ٣٣ مِتْرًا وَعَرْضُها ٨ أمْتارٍ . »

دَهِشَ السِّنْدِبادُ ، وَ وَجَدَ نَفْسَهُ يَسْبَحُ في بَحْرٍ مِنَ الألْغازِ فَقالَ لِلشَّيْخِ في غَضَبٍ وَضيقٍ : « عَنْ أيِّ سَفينَةٍ تَتَحَدَّثُ ؟ »

فَأجابَهُ الشَّيْخُ في غُموضٍ أكْثَرَ : « أتَحَدَّثُ عَنْ سَفينَتي ، يا سِنْدِبادُ . »

فَذُهِلَ السِّنْدِبادُ وَسَألَ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ تَمْلِكُ سَفينَةً بِمِثْلِ تِلْكَ المُواصَفاتِ ؟ إنَّها تُساوي مائَةَ ألْفِ دينارٍ عَلى

الأَقلِّ . »

بانَ الحُزْنُ في عَيْنَي الشَّيْخ وَقالَ : « كُنتُ أَملِكُ ثَلاث سُفُنٍ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ السَّفينَةِ ، وَقَبْلَها امْتَلَكْتُ ما يُساوي ثَمنَ هَذِهِ السَّفينَةِ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

وَأَشارَ إِلى سَفينَةٍ عَظيمَةٍ تَرْسو قَريبًا ، تَرْتَفعُ أَشْرعَتُها إِلى عَنانِ السَّماءِ ، وَتَسْتَقِرُّ إِلى جِوارِ الميناءِ وَكَأَنَّها قَصْرٌ شامِخٌ ، ولا يَبْدو فَوْقَها بَحّارَةٌ أَوْ رُكّابٌ .

اِبْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ لِمَهابَةِ مَنْظَرِ السَّفينَةِ وَضَخامَتِها ، وَتَساءَلَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « أَ هَذِهِ سَفينَتُكَ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ في لَوْمٍ : « أَخْبَرْتُكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّني عِشْتُ أَجولُ بَيْنَ بِلادِ اللهِ ، وَأَنَّ البَحْرَ مَطِيَّتي وَالمَوانِئَ مَقْصِدي ، فَلَمْ تَفْهَمْ أَنَّني رُبّانٌ ، أَتَنَقَّلُ بَيْنَ المَوانِئِ وَالبِحارِ . »

أَحَسَّ سِنْدِبادُ بِبَعْضِ الخَجَلِ وَقالَ لِلشَّيْخ : « وَلَكِنْ أَيْنَ ذَهَبَ بَحّارَةُ سَفينَتِكَ ؟ »

اِكْفَهَرَّ وَجْهُ الشَّيْخِ وَقالَ : « لا تَسْأَلْ عَمّا لا يُفيدُكَ كَشْفُ سِرِّهِ ، يا سِنْدِبادُ . »

اِعْتَرَضَ السِّنْدِبادُ : « وَلَكِنْ . . »

اِعْتَرَضَهُ الشَّيْخُ بِدَوْرِهِ في لَهْجَةٍ حاسِمَةٍ : « لا وَقْتَ لَدَيْنا ، يا سِنْدِبادُ . فَلْنُسْرِعْ بِجَلْبِ بَحّارَةٍ يَقْبَلونَ الرَّحيلَ مَعَنا ، فَوَقْتي قَصيرٌ وَمَهامّي لا تَحْتَمِلُ التَّأْخيرَ . »

صَمَتَ السِّنْدِبادُ ، وَتَبِعَ الشَّيْخَ عابِسًا ، وَقَدْ تَكَدَّرَتْ مَلامِحُهُ ، وَهُوَ يَتَساءَلُ أَيُّ أَسْرارٍ يُخْفيها عَنْهُ صاحِبُهُ الغامِضُ .

وَأَخَذَ الاثْنانِ يَجوبانِ الأَزِقَّةَ وَالحاناتِ ، بَحْثًا عَنْ بَحّارَةٍ بِلا عَمَلٍ ، فَاجْتَمَعَ لَهُمْ ما يَزيدُ عَلى خَمْسينَ بَحّارًا مِنْ كُلِّ الأَجْناسِ ، كانوا عاطِلينَ عَنِ العَمَلِ . وَعِنْدَما أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْخُ الدَّنانيرَ الذَّهَبِيَّةَ ، الَّتي دَفَعَها لَهُمْ مُقَدَّمًا ، تَرَكوا كُلَّ شَيْءٍ وَراءَهُمْ ، وَتَبِعوهُ مَلْهوفينَ .

وَأَخيرًا تَمَّ الاسْتِعْدادُ لِلرِّحْلَةِ ، وَزُوِّدَتِ السَّفينَةُ

بالطَّعامِ وَالفاكِهَةِ ، وَرَفَعَتِ السَّفينَةُ مَراسيها ، وَتَساءَلَ كَبيرُ البَحّارَةِ ، الَّذي عَيَّنَهُ الشَّيْخُ ، وَكانَ شَرْكَسِيًّا يُدْعى مَمْلوك خان : « أيْنَ سَتَكونُ وِجْهَتُنا ، أيُّها الرُّبّانُ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ : « سَوْفَ نُبْحِرُ إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ بَعْدَ عُبورِنا شَطَّ العَرَبِ . »

عاوَدَ كَبيرُ البَحّارَةِ سؤالَهُ في صيغَةٍ أخْرى : « وَأيْنَ مَقْصِدُنا النِّهائِيُّ ؟»

ضاقَتْ عَيْنا الشَّيْخِ وَرَمَقَ (مَمْلوك خان) بِنَظْرَةٍ بارِدَةٍ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « قَدْ تَكونُ المَعْرِفَةُ مُهْلِكَةً في بَعْضِ الأحْيانِ ، فَلا تَتَعَجَّلْها . »

انْصَرَفَ مَمْلوك خان إلى عَمَلِهِ ، وَبَسَطَ البَحّارَةُ الأشْرِعَةَ الرَّئيسيَّةَ فَدَفَعَتِ الرِّياحُ السَّفينَةَ الكَبيرَةَ لِمُغادَرَةِ الميناءِ ، وَراحَتْ تَبْتَعِدُ عَنْهُ حَتّى غابَتْ مَعالِمُ مَدينَةِ البَصْرَةِ عَنْ عَيْنَي السِّنْدِبادِ . وَداهَمَهُ شُعورٌ بِالقَلَقِ البالِغِ ، وَانْقَبَضَ قَلْبُهُ وَهُوَ لا يَدْري عَنْ مُسْتَقْبَلِ نَفْسِهِ شَيْئًا .

الفَصْلُ الثّالِثُ
رائِحَةُ الخَطَرِ

قارَبَ أُسْبوعانِ عَلى الانْقِضاءِ وَالسَّفينَةُ الكَبيرَةُ تُبْحِرُ في سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ وَخِلالَ الأُسْبوعَيْنِ المُنْصَرِمَيْنِ ، تَوَطَّدَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ السِّنْدِبادِ وَالشَّيْخِ ، وَكانَ اسْمُهُ رَشْدانُ ، وَصارا في مَنْزِلَةِ الابْنِ وَأبيهِ . غَيْرَ أنَّ السِّنْدِبادَ ظَلَّ يَجْهَلُ الدّافِعَ إلى تِلْكَ الرِّحْلَةِ ، وَلَمْ يُفْصِحِ الشَّيْخُ رَشْدانُ لَهُ عَنْ ذَلِكَ أبَدًا .

وَذاتَ مَرَّةٍ سَألَهُ السِّنْدِبادُ ، وَهُوَ يَرى الذَّهَبَ الكَثيرَ ، الَّذي مَنَحَهُ الشَّيْخُ لِلْبَحّارَةِ : « لا بُدَّ أنَّكَ تَمْلِكُ كَنْزًا مِنَ الذَّهَبِ ، لِتُوَزِّعَهُ بِغَيْرِ حِسابٍ . » فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ دونَ أنْ يُجيبَ السِّنْدِبادَ . وَكانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عالِمًا أريبًا بِكُلِّ فُنونِ البَحْرِ وَمَسالِكِهِ ، خَبيرًا بِالرِّياحِ وَمَواقِعِ النُّجومِ

وَالاتِّجاهاتِ حَتّى دونَ استِخْدامِ الْمِزْوَلَةِ ، لِتَحْديدِ مَوْقِعِ السَّفينَةِ في عُرْضِ المُحيطِ ، مُعْتَمِدًا عَلى أماكِنِ النُّجومِ في اللَّيْلِ ، وَجِهَةِ شُروقِ الشَّمْسِ وَغروبِها .

وَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَبَسِّطًا لِلشَّيْخِ رَشْدانَ : « أرى أنَّنا نَتَّجِهُ لِلطَّرَفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ إفريقيا ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ أرْضٌ بَعْدَ هَذِهِ القارَّةِ أوْ وراءَها . »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ الرُّبّانُ وَأجابَهُ : « ما أقَلَّ ما تَعْرِفُ عَنِ الدُّنْيا . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ : « وَلَكِنَّ البَحّارَةَ أخْبَروني أنَّهُ لا شَيْءَ بَعْدَها سِوى الماءِ الَّذي لا يَنْتَهي . »

فَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ ساخِرًا : « ما أقَلَّ ما يَعْرِفُ هَؤُلاءِ البَحّارَةُ ، عَلى كَثْرَةِ أسْفارِهِمْ . »

اِتَّسَعَتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ طَلَبًا لِلْمَعْرِفَةِ وَسَألَ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ توجَدُ أرْضٌ أُخْرى غَيْرُ الَّتي نَعْرِفُها ؟ »

حَدَّقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في الأفُقِ البَعيدِ ، وَقالَ : « ما

أكْثَرَ عَجائِبَ اللهِ في كُلِّ مَكانٍ . وَما أغْرَبَ تِلْكَ الأرْضَ الواقِعَةَ في قِمَّةِ العالَمِ في أقْصى طَرَفِهِ الشَّمالِيِّ . »

فَسَألَهُ السِّنْدِبادُ في انْدِفاعٍ وَلَهْفَةٍ : « صِفْها لي . »

أجابَهُ الشَّيْخُ وَكَأنَّهُ يَراها أمامَ عَيْنَيْهِ : « هِيَ جَليدٌ دائِمٌ ، وَجِبالٌ مِنَ الثَّلْجِ ، وَشَمْسٌ تُشْرِقُ نِصْفَ عامٍ كَقُرْصٍ بارِدٍ في السَّماءِ ، وَظَلامٌ يَعُمُّ بَقِيَّةَ العامِ ، وَكَأنَّهُ لَيْلٌ طَويلٌ لا يَنْتَهي . »

فَغَرَ السِّنْدِبادُ فَمَهُ في ذُهولٍ ، وَتَساءَلَ : « وَهَلْ هُناكَ أرْضٌ مِنَ الثَّلْجِ وَالجَليدِ ؟ »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَرَماهُ بِنَظْرَةٍ مُشْفِقَةٍ قَبْلَ أنْ يُجيبَهُ : « وَهُناكَ أيْضًا أرْضٌ مِنْ نارٍ ، وَبِحارٌ تَثورُ بَراكينُها في قَلْبِ أمْواجِها ، وَتَقْذِفُ بِالحُمَمِ وَالنّارِ ، فَتُحيلُ مِياهَ البِحارِ جَحيمًا وَكَأنَّها حَديدٌ مَصْهورٌ . »

سَألَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ وَطِئْتَ هَذِهِ الأرْضَ بِقَدَمَيْكَ ، وَقاسَيْتَ مَشاقَّها ، وَرَأيْتَ عَجائِبَها ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ بِعَيْنَيْنِ يَشْتَدُّ بَريقُهُما : « لَعَلّي أكونُ بالِغَها يَوْمًا ما ، إذا شاءَتْ لِيَ الأَقْدارُ . »

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « فَمَنْ أَخْبَرَكَ بِأَنْباءِ هَذِهِ الأَرْضِ إِذَنْ ، وَأَكَّدَ لَكَ يَقينَ وُجودِها ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « إِنَّهُ أَبي ، وَقَدْ كانَ مُغْرَمًا بِالتَّرْحالِ وَارْتِيادِ المَجْهولِ ، وَقَدْ راهَنَ أَصْحابَهُ يَوْمًا أَنْ يَبْلُغَها ، فَوَصَفوهُ بِالجُنونِ ، وأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَبْلُغَ ما لا وُجودَ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلى ما قالَهُ ، وَارْتَحَلَ في سَفينَةٍ عَظيمَةٍ وَعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ البَحّارَةِ ، وَغابَ عامَيْنِ قَبْلَ أَنْ نَراهُ ثانِيَةً ، دونَ أَنْ يَعودَ مَعَهُ أَيٌّ مِمَّنِ ارْتَحَلوا في صُحْبَتِهِ ، وَقَدْ طَواهُمُ المَوْتُ جَميعًا سِواهُ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَبِماذا أَخْبَرَكَ عَنْ رِحْلَتِهِ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ دَوَّنَ أَبي كُلَّ ما رَآهُ في مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ ، أَوْصاني بِعَدَمِ مُطالَعَتِهِ إِلا بَعْدَ وَفاتِهِ ، وَقَدْ كانَ ، فَصارَ عَجَبي يَتَزايَدُ مَعَ كُلِّ حَرْفٍ أَتْلوهُ ، حَتّى بَلَغَ

بِيَ الذُّهولُ مُنْتَهاهُ . وَبَعْدَ أَنْ أَعَدْتُ القِراءَةَ مَرّاتٍ ، طَرَدْتُ الذُّهولَ ، وَصِرْتُ أَتَمَثَّلُ هَذِهِ الأَرْضَ أَمامي ، وَكَأَنَّني أَراها بِعَيْنِ الخَيالِ ، وَأَطوفُ في أَرْكانِها ، حَتّى ثارَتْ بِالنِّسْبَةِ لي واقِعًا حَيا تَمَنَّيْتُ رُؤْيَتَهُ بِعَيْنِ الحَقيقَةِ عَلى الدَّوامِ . »

وَ لاحَظَ السِّنْدِبادُ عَلاماتِ القَلَقِ على وَجْهِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، فَسَأَلَهُ : « أَراكَ قَلِقًا ، وَكَأَنَّكَ تَخْشى حُدوثَ أَمْرٍ جَلَلٍ . »

أَوْمَأَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِرَأْسِهِ مُجيبًا بِنَعَم وَهُوَ يَتَأَمَّلُ السَّماءَ ، وَقالَ : « لَقَدْ تَجاوَزْنا نِصْفَ الأَرْضِ واقْتَرَبْنا مِنْ مَنْطِقَةٍ خَطِرَةٍ ساخِنَةِ الرِّياحِ ، وَأُحِسُّها قَدْ بَدَأَتْ تَصْعَدُ لأَعْلى بِسَبَبِ خِفَّتِها . »

بَدأَ قَلَقُ الشَّيْخِ رَشْدانَ يَنْتَقِلُ لِلسِّنْدِبادِ ، فَسَأَلَهُ : « وَهَلْ ثَمَّةَ خَطَرٌ في ذَلِكَ ؟ »

فَرَكَ الشَّيْخُ أَصابِعَهُ في عَصَبِيَّةٍ وَقالَ : « كُلُّ الخَطَرِ ،

فَتلْكَ الرِّياحُ تَتحوَّلُ إلى دُوّامَةٍ بِسَبَبِ سُرْعَةِ حرَكَتِها ، وَتَتحوَّلُ هَذِهِ الدُّوّامَةُ إلى عاصِفَةٍ ، وَقَدْ تَصيرُ إلى إعْصارٍ ساحِقٍ مُدمِّرٍ ، لا يُبْقي وَلا يَذرُ . وَلَكِنّي أظُنُّ أنَّنا سَنَجْتازُ مَكانَ هُبوبِ الإعْصارِ قَبْلَ مُداهَمَتِهِ . »

تَطلَّعَ السِّنْدبادُ إلى الشَّيْخِ في سَعادَةٍ وَقالَ : « ما أسْعَدَني بِمُصاحَبَتِكَ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ . »

قالَ الشَّيْخُ : « لَعَلَّهُ لَيسَ حظًّا بَلْ قَدرٌ ، ساقَكَ إليَّ وَساقَني إلَيْكَ . »

سَأَلَهُ السِّنْدبادُ : « هَلْ كُنْتَ تَبْحَثُ عَنّي حقًّا ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ دونَ مُوارَبَةٍ : « وَكأنَّني أفَتِّشُ عَنْ إبْرَةٍ في كُومِ قَشٍّ . »

فَاتَّسعَتْ عَيْنا السِّنْدبادِ في ذُهول، وَسأَلَ مُحدِّثَهُ : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ بِوُجودي ، وَنَحْنُ لَمْ نَتَعارَفْ مِنْ قَبْلُ ، وَلا صِلَةَ بَيْنَنا ؟ »

قالَ الشَّيْخُ : « كُلُّ الشَّواهِدِ كانَتْ تُؤَكِّدُ وُجودَكَ ،

وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ غَيْرُ السَّعْيِ ، وَكانَ القَدَرُ رَفيقًا بي وَبِكَ ، فَتَلاقَيْنا بِأسْرَعَ مِمّا قَدَّرْتُ . »

سَأَلَهُ السِّنْدبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَلَكِنْ لِماذا ؟ لِماذا سَعَيْتَ لِلْبَحْثِ عَنّي ؟ »

تَبسَّمَ الشَّيْخُ وَأجابَهُ : « كُنْتُ في حاجَةٍ إلى جُرْأتِكَ ، وإقْدامِكَ ، وَجسارَتِكَ ، فَبِرَغْمِ خِبْرَتي وَمَعْرِفَتي ، فَلَسْتُ سِوى شَيْخٍ قارَبَ الوَهَنُ أنْ يُدْرِكَهُ ، وَلَزِمَ عَلَيَّ الاسْتِعانَةُ بِمَنْ كانَتْ لَهُ صِفاتُكَ ، فَالْخِبْرَةُ وَالْمَعْرِفَةُ وَحْدَهُما لا يَكْفِيانِ لِمُواجَهَةِ الشَّدائِدِ في زَمَنٍ صارَ زادُهُ الجَسارَةَ والشَّجاعَةَ ، فَكأنَّنا طَرَفانِ نائِيانِ ، كانَ لا بُدَّ مِنِ الْتِحامِهِما ، لِيَزيدَ اتِّحادُهُما قُوَّةً . »

تَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ ، وَسَألَ الشَّيْخَ : « ما الَّذي أرَدْتَ الاسْتِعانَةَ بي في مُواجَهَتِهِ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ : « سَتَعْرِفُ عِنْدَما يَحينُ الأوانُ ، فَلا تَتَعجَّلِ الأقْدارَ . »

الفَصْلُ الرّابِعُ
عَنْبَر والقُرْصانُ الأسْوَدُ

اسْتَمَرَّت السَّفينَةُ في سَيْرِها طَوالَ اللَّيْلِ . وَفَجْأَةً عِنْدَ الفَجْرِ انْفَجَرَ في السَّماءِ صَوْتٌ رَهيبٌ ، فَقَفَزَ السِّنْدبادُ مِنْ فِراشِهِ وَهُرِعَ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ ؛ فَشاهَدَ الإعْصارَ الرَّهيبَ يَنْدَفِعُ في قَلْبِ السَّماءِ عَلى شَكْلِ قِمَعٍ لَهُ ذَيْلٌ طَويلٌ ، تَرْتَجِفُ حَوافُّهُ وَتَفورُ وَكَأَنَّها الزَّيْتُ المَغْلِيُّ ، وَقَدْ ذابَ ضَوْءُ الفَجْرِ الوَليدُ في حُمْرَةِ الإعْصارِ ، وَقَدْ راحَتِ الرِّياحُ تَصْفِرُ وَكَأَنَّها زَفيرُ الجانِّ ، وَالمِياهُ تَتَقَلَّبُ تَحْتَها وَكَأَنَّها أَرْضٌ يَحْرُثُها الهَواءُ .

صَرَخَ السِّنْدِبادُ في هَلَعٍ : « إِنَّهُ الإعْصارُ ! »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مِنَ الخَلْفِ في صَوْتٍ هادِئٍ : « الحَمْدُ للهِ أَنَّا تَجاوَزْنا في اللَّيْلِ مَنْطِقَةَ قَلْبِ الإعْصارِ ،

وَإلا أَصابَنا ضَرَرٌ هائِلٌ ، وَما نَجَوْنا مِنْهُ أَبَدًا ، وَتَهَشَّمَتْ سَفينَتُنا كَأَنَّها كَعْكَةٌ صَغيرةٌ تَهْرُسُها رَحًى هائِلَةٌ . »

وَاسْتَمَرَّتْ فَرْقَعَةُ الرِّياحِ وَفَوَرانُ المِياهِ وَتَلَوُّنُ السَّماءِ بِالأَلْوانِ الدّامِيَةِ ، حَتّى العَصْرِ ، فَهَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَعادَ البَحْرُ وَالسَّماءُ إلى سُكونِهِما ، وَانْزاحَ الإعْصارُ بَعيدًا ، فَأَمَرَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بِالرُّسُوِّ عِنْدَ بَعْضِ الجُزُرِ القَريبَةِ عَلى ساحِلِ البَحْرِ الأَحْمَرِ ، فَابْتاعَ مِنْ سُكّانِها الفاكِهَةَ الطّازَجَةَ وَالمِياهَ العَذْبَةَ ، ثُمَّ رَفَعَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها وَانْطَلَقَتْ مَرَّةً أُخْرى تَجْري في قَلْبِ المِياهِ .

وَوَقَفَ السِّنْدِبادُ مَكانَهُ فَوْقَ حاجِزِ السَّفينَةِ ، وَهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « ها نَحْنُ أَوْلاءِ نُبْحِرُ ثانِيَةً ، إلى حَيْثُ المَجْهولُ . »

وَلَمْ يُحِسَّ بِاقْتِرابِ الشَّيْخِ رَشْدانَ مِنْهُ ، إلا عِنْدَما وَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ صامِتًا ، وَتَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ لَهُ : « إِنَّني أَقْرَأُ ما يَجولُ في خاطِرِكَ ؛ فَهُوَ واضِحٌ في عَيْنَيْكَ ، وَأَرى سُؤالَكَ

مَطْبوعًا في مُقْلَتَيْكَ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ دونَ إلْحاحٍ : « وَهَلْ مِنْ إجابَةٍ ، أَمْ أَنَّ الأَوانَ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ ؟ »

أَطْبَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ شَفَتَيْهِ عَنِ الرَّدِّ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُغالِبُ نَفْسَهَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى السِّنْدِبادِ، وَأَجابَهُ في صَوْتٍ حَنونٍ : « بَلْ آنَ الأَوانُ ، يا سِنْدِبادُ ، فَلا تَجْزَعْ أَوْ تَنْزَعِجْ مِمّا أُوشِكُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ ، قَدْ تَحْسَبُهُ الجُنونَ بِعَيْنِهِ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « سَوْفَ نُبْحِرُ ، بِإِذْنِ اللهِ وَمَشيئَتِهِ ، إلى بِلادِ الجَليدِ ! »

شَهَقَ السِّنْدِبادُ لِفَرْطِ المُفاجَأَةِ ، وَحَسِبَ أَنَّ سَمْعَهُ خانَهُ ، فَتَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في صَمْتٍ حَزينًا ، ثُمَّ قالَ في أَسًى : « كُنْتُ أَظُنُّكَ أَكْثَرَ جَسارَةً وَحُبًّا لِلْمُخاطَرَةِ ، مِمّا أَراكَ عَلَيْهِ الآنَ ، وَلَكِنَّ الفارِسَ الجَسورَ كَالْبَخورِ الجَيِّدِ ، لا تَظْهَرُ حَقيقَتُهُ إلا مَتى اقْتَرَبَ مِنَ الجَمْرِ المُتَّقِدِ ،

وَلَسَعَتْهُ حَرارَةُ النِّيرانِ . »

ابْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ في تَوَتُّرٍ ، وَتَمالَكَ زِمامَ نَفْسِهِ وَهُوَ يَقولُ : « وَلَكِنْ ، يا سَيِّدي ، هَذِهِ مُفاجَأَةٌ تامَّةٌ . أَرْضُ الجَليدِ ! هَذا آخِرُ ما كُنْتُ أَتَخَيَّلُ أَنْ أَسْعى إلَيْهِ ! »

وَسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ في تَوَتُّرٍ أَشَدَّ : « وَلِماذا نُلْقي بِأَنْفُسِنا في جَحيمِ هَذِهِ الأَرْضِ ، أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ ، وَلا شَيْءَ يُجْبِرُنا على ذَلِكَ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « كَأَنّي أَشُمُّ رائِحَةَ الخَوْفِ تَفوحُ مِنْ كَلِماتِكَ الَّتي يَبْدو في ظاهِرِها النُّصْحُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُراوِغًا : « إنَّهُ الحِرْصُ عَلى الحَياةِ . فَالْخَوْفُ يُبْعِدُ الشَّرَّ عَنِ الإنْسانِ . »

قالَ الشَّيْخُ : « وَالشَّجاعَةُ تُخَلِّصُهُ مِنَ الشَّرِّ ، فَلا يَعودُ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ بَعْدَ ذَلِكَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في ضيقٍ : « لَسْتُ أَرى غَيْرَ أَنَّنا نُلْقي بِأَنْفُسِنا إلى التَّهْلُكَةِ . »

تَأمَّلَهُ الشَّيْخُ ، وَكَأنَّهُ يَسْتَشِفُّ أفْكارَهُ ، وَقالَ : « اثْنانِ لا يَرَيانِ الحَقيقَةَ ، هُما الأعْمى وَالجَبانُ ، وَأراكَ كَسولاً تَخْشى المَشْيَ في الشَّمْسِ ؛ حَتّى لا تَتَكَبَّدَ مَشَقَّةَ جَرِّ ظِلِّكَ خَلْفَكَ ! »

احْتَدَّ السِّنْدِبادُ قائِلاً : « لَسْتُ جَبانًا أوْ كَسولاً . »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في سُخْرِيَةٍ : « إنَّكَ تَتَشَدَّقُ بِكَلِماتٍ كَثيرةٍ عَنِ الشَّجاعَةِ . وَكَلِماتُكَ في حَقيقَتِها مِثْلُ أوْراقِ شَجَرٍ كَثيفةٍ ، لا يُخْفي وَراءَهُ غَيْرَ ثَمَرٍ قَليلٍ . »

أقَرَّ السِّنْدِبادُ بِخَشْيَتِهِ قائِلاً : « إذا كانَ في شَجاعَتي هَلاكي – فَبِئْسَ الشَّجاعَةُ ، فَكَلْبٌ حَيٌّ أفْضَلُ مِنْ لَيْثٍ مَيِّتٍ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ في سُخْرِيَةٍ أشَدَّ : « أنْ تَكونَ ذَيْلاً لِلَيْثٍ مَيِّتٍ أفْضَلُ مِنْ أنْ تَكونَ رَأسًا لِكَلْبٍ حَيٍّ . وَإذا صِرْتَ كَلْبًا لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ ، فَلَنْ تَكُفَّ عَنِ النُّباحِ عُمْرَكَ كُلَّهُ ، مَهْما تَعْلُ مَكانَتُكَ . »

شَحَبَ وَجْهُ السِّنْدِبادِ ، وَرَكِبَهُ خَجَلٌ عَظيمٌ وَقالَ : « أنْتَ عَلى حَقٍّ ، أيُّها الشَّيْخُ ، وَلَسْتُ أدْري كَيْفَ قُلْتُ ما قُلْتُهُ ، أوْ كَيْفَ رَكِبَني هَذا الخَوْفُ الَّذي لَمْ أشْعُرْ بِمِثْلِهِ في حَياتي لِشَيْءٍ مَجْهولٍ لَمْ أرَهُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في رِقَّةٍ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِ : « قَدْ يَكونُ الخَوْفُ واقِيًا لَنا وَعاصِمًا في بَعْضِ الأحْيانِ ، بِشَرْطِ أنْ لا يَسْبِقَ شَجاعَةَ المَرْءِ وَيَطْغى عَلَيْها ، فَلَيْسَ كُلُّ التَّهَوُّرِ شَجاعَةً ، وَلا كُلُّ الإقْدامِ جَسارَةً ، كَما أنَّ الخَوْفَ لَيْسَ في مُعْظَمِهِ جُبْنًا . »

قالَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يُغالِبُ فُضولَهُ : « حَدِّثْني إذَنْ عَنِ السَّبَبِ الَّذي يَجْعَلُكَ تَسْعى إلى أرْضِ الجَليد . »

قالَ الشَّيْخُ : « سَوْفَ أُخْبِرُكَ ، يا سِنْدِبادُ ، فَمِنْ حَقِّكَ أنْ تَعْرِفَ ما دُمْتَ سَتُشارِكُني هَذِهِ الرِّحْلَةَ المُهْلِكَةَ . »

وَصَمَتَ طَويلاً دونَ أنْ يَجْرُؤَ السِّنْدِبادُ عَلى اقْتِحامِ صَمْتِهِ . وَقالَ الشَّيْخُ أخيرًا ، وَكَأنَّهُ اسْتَجْمَعَ شَتاتَ قُواهُ

الخائِرَة :

« قَبل اثْنَي عَشرَ عامًا كُنْتُ شَهْبَنْدَرَ التُّجّار في دِمَشْق ، وَكانَ لي ثَراءٌ عَظيمٌ وَقصورٌ وَأمْوالٌ لا حَصْرَ لَها ، وَكانَتْ لي سُفُنٌ عَديدَةٌ تَجوبُ الآفاقَ مُحَمَّلَةً بِالبَضائع ، فَيَبيعُ وُكَلائي وَأُجَرائي البَضائع ، ويشْتَرونَ غَيْرَها مِنْ بِلادِ الصِّيْن وَالهِنْدِ وَالخَليج العَرَبِيِّ ، وَحَتّى مِنَ الأحْباش ، فَتَضاعَفَتْ أمْوالي ، حَتّى صِرْتُ لا أجِدُ مَوْضِعًا لَها ، وَصِرْتُ أُفَرِّقُ مِنْها لِلنّاس وَأبْتَني لَهُمُ البُيوتَ وَالمَنازِلَ وَأكْسوهُمْ وَأُوَزِّعُ عَلَيْهِمُ الهِباتِ . وَلَكِنْ ، ذاتَ يَوْم لا تَزالُ ذِكْراهُ مَحْفوظَةً في عَقْلي ، ماتَتْ زَوْجَتي بِسَبَبِ مَرَضٍ مُفاجِئ لَمْ يُمْهِلْها طَويلاً . »

وَ ابْتَلَّتْ عَيْنا الشَّيْخ رَشْدانَ بِالدُّموع ، وَقالَ : « لَمْ أَحْزَنْ عَلى إنسان قَدْرَ حُزْني عَلى فِراقِها ، فَقَدْ كانَتْ نِعْمَ الزَّوْجَةُ والأخْتُ وَالأُمُّ ، وَبِمَوْتِها صِرْتُ لا أطيقُ قَصْري وَلا الدَّكاكينَ وَلا تِجارَتي ، فَكَأنَّها كُلُّها تُذَكِّرُني بِها ، فَفَكَّرْتُ في السَّفَرِ والتَّرْحالِ ، عَسى أنْ يُخَفِّفَ ذَلِكَ مِنْ

أَوْجاعي . وَكانَتْ لِيَ ابْنَةٌ وَحيدَةٌ تُدْعى عَنْبَر ، تَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثَةَ أعْوام ، فَاصْطَحَبْتُها في رِحْلاتي ، بَعْدَ أنْ وَزَّعْتُ كُلَّ ما أمْلِكُ في بِلادي عَلى الفُقَراءِ وَالمُعْوَزين . وَأخَذْتُ أجوبُ البِلادَ وَالبِحارَ وَالمُحيطاتِ ، وَأزورُ كُلَّ مَكانٍ ، فَصِرْتُ خَبيرًا بِأمور البَحْرِ وَقِيادَةِ السُّفُنِ مِثْلَ أمْهَرِ رُبّانٍ ، وَعَرَفْتُ مِنَ البِلادِ وَالعِبادِ واللُّغاتِ ما لَمْ أكُنْ أتَخَيَّلُ وُجودَهُ في العالَمِ . »

رَمَقَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَقَدْ بَدا لَهُ مَهيبًا جَليلَ الشَّأنِ ، في مَنْزِلَةِ العُلَماءِ . وَ واصَلَ الشَّيْخُ في صَوْتٍ مُتَهَدِّج :

« وَمَرَّتْ خَمْسُ سَنواتٍ وَكَبِرَتِ ابْنَتي عَنْبَر وَصارَ لَها مِنَ العُمْرِ ثَماني سَنَواتٍ ، وَصارَتْ عِنْدي أغْلى مِنَ الدُّنْيا وما فيها، وَأصْبَحْتُ لا أطيقُ فِراقَها ، وَأَصْحَبُها في أسْفاري الدّائِمَةِ ، وَكُنْتُ لابْنَتي بِمَثابَةِ الأَب والأمِّ والأخِ ، إلى أنْ جاءَ يَوْمٌ لَمْ تَطْلُعْ لَهُ شَمْسٌ . »

وَأمْسَكَ الشَّيْخُ رَشْدانُ دُموعَهُ ، وَ واصَلَ في تَجَلُّدٍ :

« كُنْتُ أُبْحِرُ في ثَلاثٍ مِنْ سُفُنِي مُحَمَّلَةٍ بِالبَضائِعِ وَالأَعْوانِ ، عِنْدَما هاجَمْنا بَغْتَةً بِضْعٌ مِنْ سُفُنِ القَراصِنَةِ ، يَرْأَسُهُمْ قُرْصانٌ حَبَشِيٌّ يُلَقِّبونَهُ بالأَسْوَدِ . وَكانَ هَذا القُرْصانُ وَحْشًا دَمَوِيّا لا تَأْخُذُهُ رَأْفَةٌ وَلا شَفَقَةٌ بِإِنْسانٍ ، وَلَمْ تَكُنْ سُفُنِي مُجَهَّزَةً لِلْقِتالِ أَوْ صَدِّ العُدْوانِ ، فَسَقَطَتْ كُلُّها أسيرَةَ قَبْضَةِ القُرْصانِ السَّفّاحِ ، وَأَرَدْتُ الخُروجَ بِأَقَلِّ الخَسائِرِ المُمْكِنَةِ ، وَحِمايَةَ أَرْواحِ أَتْباعي وَابْنَتي ، فَعَرَضْتُ عَلى القُرْصانِ الأَسْوَدِ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى سُفُنِنا الثَّلاثِ ، بِما تَحْمِلُ مِنْ بَضائِعَ وَنَفائِسَ ، عَلى أَنْ يَقومَ بِإِنْزالِنا سالِمينَ فَوْقَ أَقْرَبِ أَرْضٍ ، خالِيِّينَ الوِفاضَ ، وَلَكِنَّ القُرْصانَ السَّفّاحَ سَخِرَ مِنّي وَأَمَرَ بِإِلْقائِنا في البَحْرِ ، لِتَأْكُلَنا أَسْماكُهُ . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ مُنْزَعِجًا : « وَهَلْ غَرِقَ كَثيرٌ مِنْكُمْ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ وَالعَبَراتُ تَخْنُقُهُ : « كُنْتُ أَنا النّاجِيَ الوَحيدَ ، وَلا أَدْري إِنْ كانَ ذَلِكَ لِحُسْنِ حَظّي ، أَمْ لِسوئِهِ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ في تَلَهُّفٍ : « وَابْنَتُكَ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِحُزْنٍ : « كانَتْ عَنْبَرُ هِيَ الوَحيدَةَ الَّتي لَمْ يُلْقِ بِها القُرْصانُ في اليَمِّ ، واحْتَفَظَ بِها أَسيرَةً لَدَيْهِ مَعَ أَطْفالٍ آخَرينَ اخْتَطَفَهُمْ مِنْ سُفُنٍ عَديدَةٍ ، وَلا أَدْري ماذا فَعَلَ بِهِمْ ، أَوْ ماذا كانَ مَصيرُهُمْ . وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ تَقَعْ عَيْني عَلى ابْنَتي . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ : « أَ لَمْ تُحاوِلِ البَحْثَ عَنْ عَنْبَرٍ خِلالَ تِلْكَ السَّنَواتِ السَّبْعِ الماضِيَةِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ بِمَرارَةٍ : « بَلْ لَمْ يَعُدْ لي مِنْ هَدَفٍ في حَياتي بَعْدَ ذَلِكَ الحادِثِ ، سِوى مُطارَدَةِ هَذا القُرْصانِ ، فَصِرْتُ أَتَتَبَّعُهُ مِنْ ميناءٍ لِميناءٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إِلى مُحيطٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ لِمَرْفَأٍ ، وَأَنا أَعْمَلُ كَأَجيرٍ فَوْقَ السُّفُنِ المُخْتَلِفَةِ لِكَيْ أُدَبِّرَ نَفَقاتِ تَرْحالي ، وَلَمْ يَكُنْ لي مِنْ أَمَلٍ سِوى مُصادَفَةِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ لأَعْرِفَ مِنْهُ مَصيرَ ابْنَتي ، وَلِتَكونَ نِهايَتُهُ عَلى يَدَيَّ وَلَوْ كانَ في ذَلِكَ هَلاكي . وَلَكِنَّ كُلَّ ما فَعَلْتُهُ كانَ دونَ جَدْوى ، فَما كُنْتُ أَكادُ

أصِلُ لميناءٍ حتّى أجِدَهُ قَدْ غادَرَهُ تَوًّا ، وَما أكادُ أَلْحَقُ بِهِ فَوْقَ جَزيرَةٍ حَتّى يَسْبِقَني في مُغادَرَتِها ، فَكأنَّ القَدَرَ يَسْخَرُ مِنّي وَيَزيدُ مِنْ إيلامي ، أَوْ كَأنَّني أطارِدُ شَبَحًا ، لا واحِدًا مِنْ بَني البَشَرِ . »

وَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ : « وَقَبْلَ شُهورٍ عَلِمَ الخَليفَةُ بِأَمْري ، وَأَشْفَقَ عَلَيَّ ، فَمَنَحَني سَفينَةً كَبيرَةً ، لِتَكونَ تَحْتَ إمْرَتي ، وَ وَهَبَني مالاً كَثيرًا لأَسْتَأْجِرَ بِهِ البَحّارَةَ اللازِمينَ لِلإبْحارِ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ عَلِمْتُ أنَّ القُرْصانَ الأَسْوَدَ قَدِ اتَّجَهَ إلى أرْضِ الجَليدِ وَاسْتَقَرَّ هُناكَ لِسَبَبٍ لا أَدْريهِ ، فَعَزَمْتُ عَلى اللَّحاقِ بِهِ ، مَهْما كَلَّفَني ذَلِكَ مِنْ مالٍ وَجَهْدٍ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ بِعَيْنَيْنِ مُتَّسِعَتَيْنِ : « وَ ما الَّذي مَنَعَكَ مِنَ السَّعْيِ خَلْفَ هَذا القُرْصانِ السَّفّاحِ الشُّهورَ الماضِيَةَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ حَزينًا : « إنَّهُمُ البَحّارَةُ ، فَما يَكادونَ يَعْلَمونَ بِغَرَضي حَتّى يَصِفوني بِالْجُنونِ ، وَاسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أجِدَ مَنْ يُبْحِرُ مَعي إلى أرْضِ الجَليدِ . وَكانَ مُسْتَحيلاً

أنْ أقودَ سَفينَتي وَحْدي . وَبَعْدَ وَقْتٍ اسْتَقَرَّ رَأْيي عَلى اسْتِخْدامِ أولَئِكَ البَحّارَةِ مِنَ البَصْرَةِ دونَ أنْ أُخْبِرَهُمْ عَنْ وُجْهَتي ، حَتّى لا أَفْقِدَهُمْ كَالآخَرينَ . »

وَ وَضَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِ السِّنْدِبادِ مُواصِلاً : « لَقَدْ ساقَني إلَيْكَ حاجَتي إلى شابٍّ جَسورٍ ، يَكونُ سَنَدي وَعَضُدي وَقْتَ الشَّدائِدِ ، عِنْدَما أُلاقي القُرْصانَ السَّفّاحَ وأسْتَرِدُّ مِنْهُ ابْنَتي . وَقادَتْني غَريزَتي إلى بَغْدادَ في ذَلِكَ الزُّقاقِ ، وَقادَكَ القَدَرُ إلَيَّ . فَكانَ لَكَ فِيَّ الخَلاصُ مِنْ جُنودِ الوَزيرِ ، وَكانَ لي فيكَ أَمَلي الأخيرُ بِبُلوغِ مُرادي وَاسْتِعادَتي ابْنَتِيَ الوَحيدَةَ الحَبيبَةَ . وَقَدْ أَسْعَدَني الحَظُّ بِكَ ، أيُّها الفَتى الجَسورُ . »

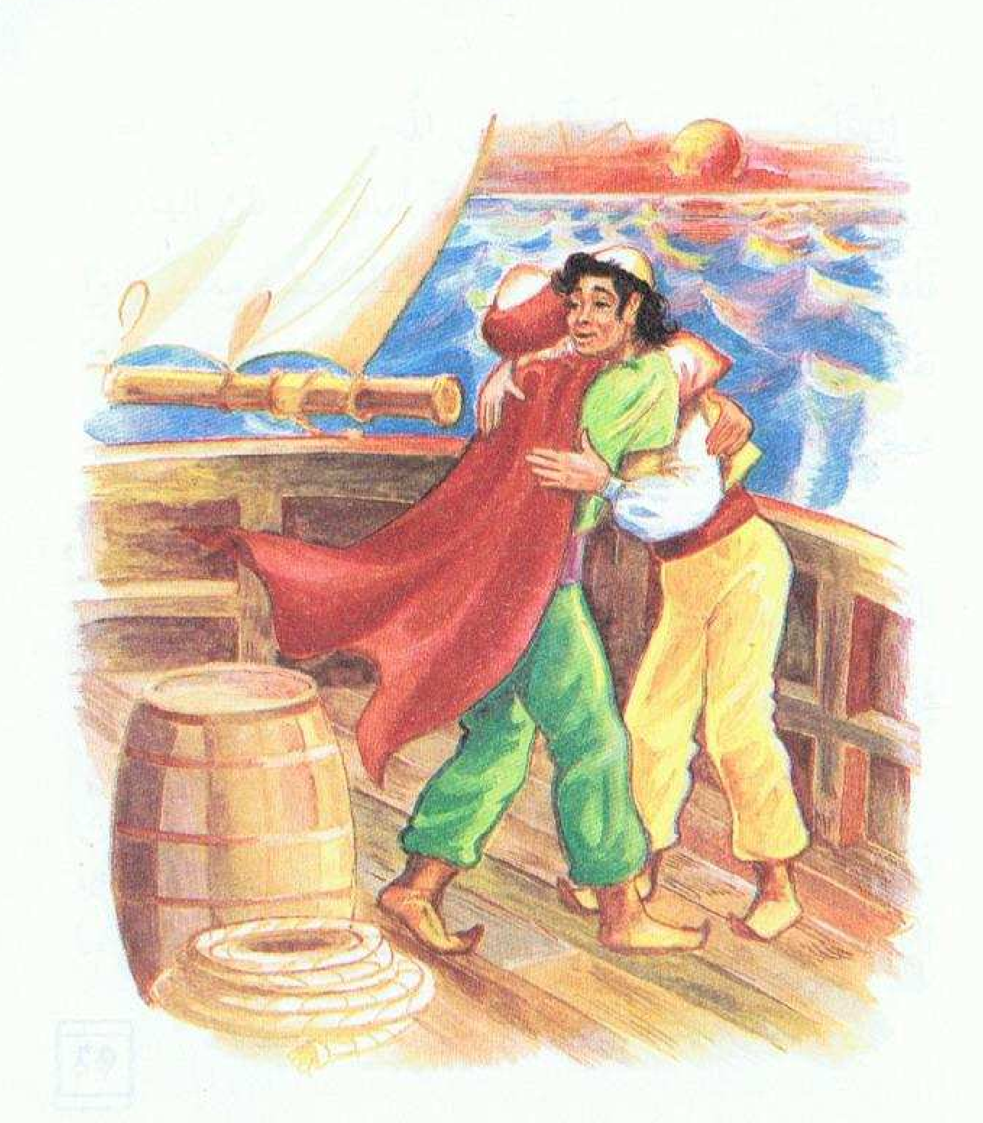
وَشَرَدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِبَصَرِهِ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، حَزينًا مَوْجوعًا ، فَأَوْشَكَتِ العَبَراتُ أنْ تَطْفِرَ مِنْ عَيْني السِّنْدِبادِ إشْفاقًا ، وَقَدِ انْكَشَفَ لَهُ سِرُّ رَفيقِهِ أخيرًا ، وَالدّافِعُ الَّذي يَسوقُهُ إلى تِلْكَ الأَرْضِ المَجْهولَةِ دونَ هَوادَةٍ ، وَأَيُّ نارٍ كانَتْ تَشْتَعِلُ في قَلْبِهِ طَوالَ سَنَواتٍ ، دونَ أنْ يَشْكو

لَهيبِها لإنسانٍ !

وَأَفاقَ عَلى صَوْتِ الشَّيْخ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « وَلَكِنّي الآنَ أَشْعُرُ أَنَّني أَسوقُكَ إلى ما لا تَرْغَبُ ، وَأَنَّهُ لا ذَنْبَ لَكَ في كُلِّ ما جَرى لي وَثَأْري المَحْتوم ، وَلَيْسَ مِنْ حَقّي أنْ أَسوقَكَ إلى التَّهْلُكَةِ اسْتِغْلالاً لِمِحْنَةِ هُروبِكَ مِنْ بَغْدادَ رَغْمًا عَنْكَ ، فَإنْ شِئْتَ ، أَيُّها الفَتى ، رَسَوْتُ بِسَفينَتي عِنْدَ أَقْرَبِ أَرْضٍ ، وَأَنْزَلْتُكَ مِنْها ، فَتَعودُ إلى بِلادِكَ ، أَوْ تَخْتارُ لَكَ أَرْضًا أُخْرى لا يُحْدِقُ بِكَ فيها خَطَرٌ أَوْ يُطارِدُكَ فيها جُنْدٌ ، فَتَحْيا فيها آمِنًا ، إلى أَنْ يَشاءَ اللهُ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ في الشَّيْخِ رَشْدانَ : « ماذا تَقولُ ، يا سَيِّدي ، وَكَيْفَ تُفَكِّرُ في مِثْلِ ذَلِكَ الخاطِرِ ؟ لَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّني في البِدايَةِ كُنْتُ مُتَخَوِّفًا مِنْ رِحْلَتِكَ المَجْهولَةِ وَأَرْغَبُ في عَدَمِ المُشارَكَةِ فيها بِأَيِّ ثَمَنٍ ، وَلَكِنّي الآنَ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ غَرَضَكَ النَّبيلَ ، فَلَنْ أُفارِقَكَ لَحْظَةً واحِدَةً حَتّى نُتِمَّ مُهِمَّتَنا ، مَهْما تَكُنِ المَخاطِرُ الَّتي تَعْتَرِضُنا أَوْ أَسْبابُ المَوْتِ الَّتي تَنْتَظِرُنا . »

احْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ في قُوَّةٍ ، وَقالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « هَذا صَنيعٌ لَنْ أَنْساهُ لَكَ أَبَدًا ، أَيُّها الفَتى الشُّجاعُ . وَلَوْ كانَ لِيَ ابْنٌ ، ما أَحْبَبْتُهُ أَكْثَرَ مِمّا أَحْبَبْتُكَ . »



فَتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْني السِّنْدِبادِ تَأَثُّرًا ، وَصارَ يَتَطَلَّعُ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ الوُصولَ إلى أرْضِ الجَليدِ ، وَقَدْ تاقَتْ نَفْسُهُ إلى ارْتِيادِها وَالمُغامَرَةِ فيها ، مَهْما تَكُنْ مَخاطِرُها الجَمَّةُ .

الفَصْلُ الخامِسُ
أَرْضُ الأَهْوالِ

اتَّخَذَتِ السَّفينَةُ طَريقَها إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ تَدْفَعُها رِياحٌ مَوْسِمِيَّةٌ هادِئَةٌ ، وَتَوَقَّفَتْ أَمامَ شَواطِئِ الهِنْدِ ، فَأَدْهَشَ السِّنْدِبادَ ثَراءُ بَعْضِ أَهْلِها الفاحِشُ مِمَّنْ كانوا يَقْتَنونَ الوُحوشَ لِلتَّسْلِيَةِ ، وَفَقْرُ أَغْلَبِ سُكّانِها . وَزادَ عَجَبُهُ مِنْ مَناظِرِ مَعابِدِهِمُ الفاخِرَةِ ، وَغُموضِ كَهَنَتِها .

وَشاهَدَ عَجَبًا في الأَسْواقِ مِنَ الحُواةِ الَّذينَ يَأْكُلونَ النّارَ ، وَيَسيرونَ فَوْقَ الزُّجاجِ وَجَمَراتِ النّارِ ، وَيَرْقُدونَ فَوْقَ فِراشٍ تَبْرُزُ مِنْهُ أَسِنَّةٌ مُدَبَّبَةٌ في حِدَّةِ السَّكاكينِ .

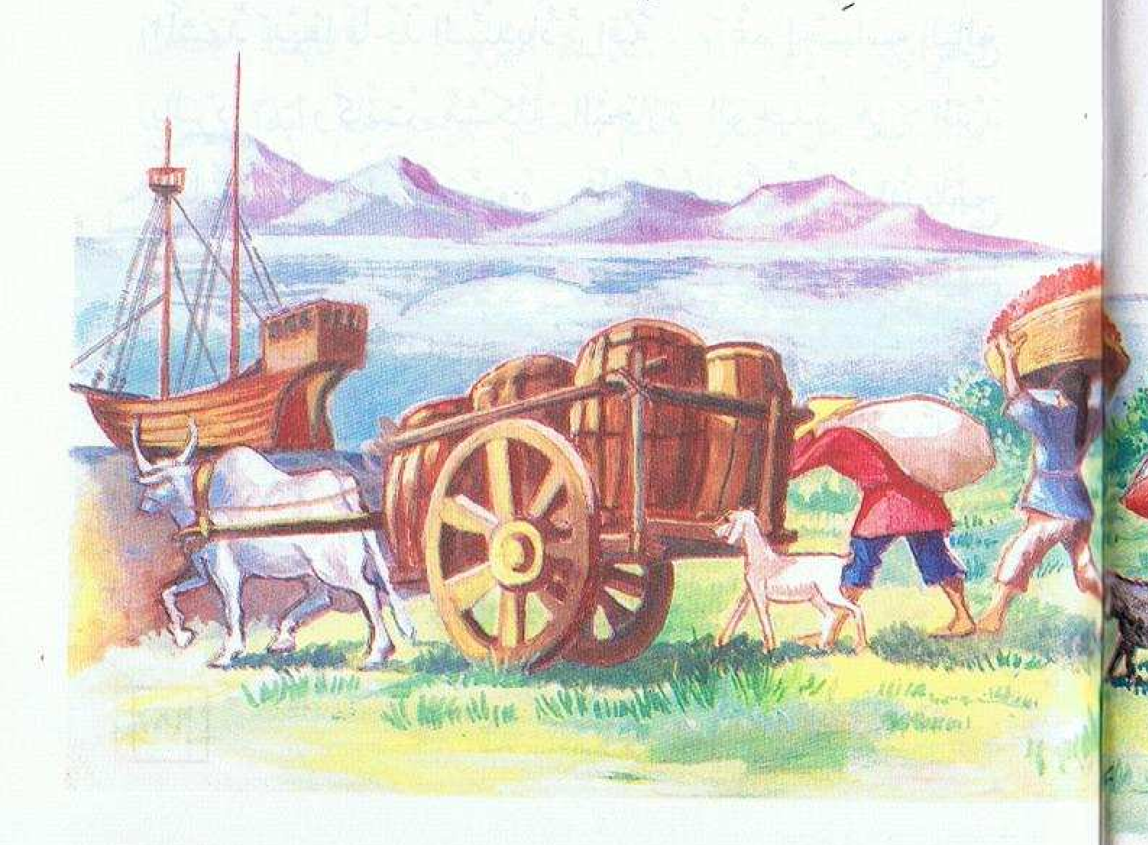
وَبَعْدَها أَبْحَرَتِ السَّفينَةُ شَرْقًا حَتّى بَلَغَتْ بِلادَ الصّينِ ، فَمَكَثَ السِّنْدِبادُ عَلى شَواطِئِها يَوْمَيْنِ أَيْضًا ، يَتَجَوَّلُ في أَسْواقِها بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، فَكانَ يَعْجَبُ مِنْ كُلِّ ما

تقعُ عَلَيْهِ عَيْناهُ مِنْ عاداتٍ وَلَهجاتٍ في الحديثِ ، وملابسَ غريبَةٍ ، وَأَنْواعٍ مِنَ الأَطْعِمَةِ لَمْ يأْلَفْها ، وَمَنازِلَ عَجيبَةِ الشَّكْلِ مُشَيَّدَةٍ مِنَ الأَخْشابِ وَالوَرَقِ المُلوَّنِ ، تُضيئُها مَصابيحُ زَيْتِيَّةٌ تُحيطُها كُراتٌ مِنَ الوَرَقِ لا تَشْتَعِلُ .

وَشاهَدَ في السّاحاتِ مُقاتِلينَ عَلى دَرَجَةٍ بالِغَةٍ مِنَ المَهارَةِ في القِتالِ ، دونَ اسْتِعْمالِ أيِّ سِلاحٍ . وَكانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَليمًا بِلُغَةِ أَهْلِ البِلادِ ، فَحادَثَهُمْ وَحادَثوهُ ، وَابْتاعَ مِنْهُمْ كُلَّ ما يَلْزَمُ رِحْلَتَهُ .

وَ واصَلَتِ السَّفينَةُ إبْحارَها في اتِّجاهِ الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ إلى بِلادِ هايانَ (اليابان) ، الَّتي يَسْكُنُها قَوْمٌ قِصارُ القامَةِ صُفْرُ الوُجوهِ صِغارُ العُيونِ ، عَلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالحَضارَةِ ، يَحْكُمُهُمْ إمْبراطورٌ عَظيمُ الشَّأْنِ .

وَبَعْدَها أَلْقَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها في عَدَدٍ مِنَ الجُزُرِ ، حَيْثُ كانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُبادِلُ إحْدى جَواهِرِهِ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الأَغْنامِ الحَيَّةِ وَسِلالِ الفاكِهَةِ وَالخَضْراواتِ الطّازَجَةِ ،



وَالدَّقيقِ وَبَراميلِ المِياهِ العَذْبَةِ ، وَفي آخِرِ ميناءٍ راحَ الشَّيْخُ يُكَدِّسُ سِلالَ الفاكِهَةِ ، وَالمِياهَ ، وَالأَغْنامَ ، فَأَدْرَكَ السِّنْدِبادُ أَنَّهُ لا تَزالُ أَمامَهُمْ رِحْلَةٌ شاقَّةٌ طَويلَةٌ إِلى أَرْضِ الجَليدِ .

وَاسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ في إِبْحارِها بَعْدَ مُغادَرَتِها بِلادَ هايان مُدَّةَ شَهْرٍ كامِلٍ ، وَقَدْ بَدَأَ الجَوُّ يَزْدادُ بُرودَةً ، وَأَخَذَتْ تَهُبُّ عَلى السَّفينَةِ وَبَحّارَتِها رِياحٌ قارِسَةُ البُرودَةِ ، وَأَخَذَ الثَّلْجُ يَتَساقَطُ مِنَ السَّماءِ في شَكْلِ كُراتٍ صَغيرَةٍ . وَكانَ المَشْهَدُ بَديعًا فَأَخَذَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُهُ ، بِرَغْمِ إِحْساسِهِ البالِغِ بِالبَرْدِ . وَكانَتْ مُشْكِلَةُ البَحّارَةِ الوَحيدَةُ هِيَ البَرْدَ القارِس الَّذي لَمْ يَتَعَوَّدوهُ ، فَأَمَرَهُمُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِذَبْحِ الخِرافِ الحَيَّةِ ، وَحِياكَةِ صوفِها وَجُلودِها كَأَرْدِيَةٍ تَقيهِمْ مِنْ شَرِّ البُرودَةِ . أَمّا لُحومُ الخِرافِ فَلَمْ يَكُنْ يُخْشى مِنْ فَسادِها بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ ، الَّذي يَقْرُبُ مِنَ التَّجَمُّدِ .

وَسَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَالطَّقْسُ يَزْدادُ بُرودَةً كُلَّ يَوْمٍ : « هَلْ تَبْقى الكَثيرُ مِنْ رِحْلَتِنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « إِنَّ وُجْهَتَنا الأَخيرَةَ هِيَ بِلادُ قَوْمٍ يُدْعَوْنَ (الإِسْكيمو) ، وَأَمامَنا أُسْبوعانِ حَتّى نَبْلُغَ شَواطِئَ البِلادِ ، وَنَجْتازَ أَنْهارَها . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثًا نَفْسَهُ ، وَهُوَ يُقْفِلُ مَلابِسَهُ عَلى نَفْسِهِ : « فَما الحالُ في تِلْكَ البِلادِ ، إِذا كانَ الطَّقْسُ تِلْكَ البُرودَةَ ، وَنَحْنُ لَمْ نَبْلُغْ مَحَطَّتَنا الأَخيرَةَ بَعْدُ ؟ »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَقالَ : « لَقَدْ قَطَعْنا نِصْفَ الأَرْضِ في إِبْحارِنا ، يا سِنْدِبادُ ، وَجُبْنا مَناطِقَ شَديدَةَ الحَرارَةِ ، إِلى بِلادٍ شَديدَةِ البُرودَةِ ، وَقابَلْنا أَجْناسًا وَأَشْكالاً مِنَ البَشَرِ ، لَمْ تَحْلُمْ بِوُجودِهِمْ أَبَدًا . فَما رَأْيُكَ في كُلِّ ما صادَفْناهُ ؟ »

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدِ الْتَمَعَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ المُغامَرَةِ وَارْتِيادِ المَجْهولِ : « لَيْسَ أَرْوَعَ مِنَ السَّفَرِ وَالتَّرْحالِ وَمُشاهَدَةِ البِلادِ وَالنّاسِ، فَسُبْحانَ اللهِ الَّذي جَعَلَ مِنْ آياتِهِ الاخْتِلافَ بَيْنَ النّاسِ وَالأَرْضِ وَالبَحْرِ ، وَحَتّى طُيورِ السَّماءِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّني بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتُهُ سَوْفَ أَرْتَحِلُ كَثيرًا

في كُلِّ البلادِ ، مَتى عُدْتُ لِبَغْدادَ ، وَسَيَصيرُ البَحْرُ بِساطي وَأشْرِعَةُ السُّفُنِ رايَتي ، وَنُجومُ السَّماءِ مُرْشِدي . »

* * *

وَمَرَّ أُسْبوعانِ كأنَّهُما شَهْرانِ ، بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ الَّتي أخَذَتْ في الزِّيادَةِ ، فَزادَ الجَميعُ مِنْ ثِقْلِ مَلابِسِهِمْ ، وَصَنَعوا لأَيْديهِمْ قَفافيزَ وَلأَقْدامِهِمْ أحْذِيَةً مِنْ صوفِ الخِرافِ . وَفَجْأَةً لاحَ عَلى البُعْدِ في قَلْبِ المِياهِ ، جَبَلٌ شاهِقٌ عَظيمُ الارْتِفاعِ ، في لَوْنِ الثَّلْجِ النّاصِعِ ، فَصاحَ السِّنْدِبادُ مَبْهوراً : « سُبْحانَ الله ، جَبَلٌ لَهُ لَوْنُ الثَّلْجِ ، في قَلْبِ المِياهِ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « بَلْ هُوَ جَبَلٌ مِنَ الثَّلْجِ بِالفِعْلِ . »

رَدَّدَ السِّنْدِبادُ في ذُهولٍ : « جَبَلٌ مِنْ الثَّلْجِ .. هَذا أعْجَبُ ما رَأيْتُ .. إنَّهُ ضَخْمٌ جِدًّا . »

قالَ الشَّيْخُ مُبْتَسِماً : « ماذا سَتَقولُ إذَنْ لَوْ عَرَفْتَ أنَّ ما يَبْدو مِنْ هَذا الجَبَلِ لِلعُيونِ لَيْسَ سِوى جُزْءٍ مِنْ ثَمانِيَةِ

أجْزاءٍ مِنْ حَجْمِهِ ، فَإنَّ بَقيَّتَهُ تَخْتَفي تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَلا يَطْفو مِنها غَيْرُ ذَلِكَ الجُزْءِ اليَسيرِ ، وَيَتَغَيَّرُ حَجْمُ هَذِهِ الجِبالِ الثَّلْجِيَّةِ بِاسْتِمْرارِ حَرَكَتِها ، فَتَنْقُصُ أوْ تَزيدُ حَسَبَ الأحْوالِ . »

لَبِثَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُ جِبالَ الثَّلْجِ حَوْلَهُ بِعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ وَكَأنَّهُ يَسْتَجْلي أسْرارَها ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى الأُفُقِ البَعيدِ مُراقِبًا السَّماءَ والشَّمْسَ الغارِبَةَ ، وَقالَ : « إنَّني أُلاحِظُ أنَّنا كُلَّما تَقَدَّمْنا صَوْبَ الشَّمالِ صارَ النَّهارُ أقْصَرَ ، والشَّمْسُ لا تَلْبَثُ أكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ أو اثْنَتَيْنِ في قَلْبِ السَّماءِ ، وَأشِعَّتُها بارِدَةٌ ، كَأنَّها مَرْسومَةٌ في كَبِدِ السَّماءِ المُلَبَّدِ بِالغُيومِ الثَّقيلَةِ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِلَهْجَةٍ يَفوحُ مِنها بَعْضُ القَلَقِ : « هَذا لأنَّنا عَلى أعْتابِ الشِّتاءِ ، وَأرْجو ألا تَتَجَمَّدَ مِياهُ البَحْرِ حَوْلَنا ، قَبْلَ أنْ نَصِلَ إلى غايَتِنا . »

سَألَ السِّنْدِبادُ : « هَلْ سَيَتَجَمَّدُ البَحْرُ حَوْلَنا ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ في أناةٍ : « بَلْ إنَّهُ يَتَحَوَّلُ إلى مِرْآةٍ

مَصْقولَةٍ مِنَ الجَليدِ الشَّديدِ الصَّلابَةِ . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ في حَيْرَةٍ : « كَيْفَ سَنُبْحِرُ بَعْدَها ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ ضاحِكًا : « سَنَكونُ مُضْطَرّينَ لِتَرْكِ السَّفينَةِ ، وَالبَحْثِ عَمَّنْ يَبيعُنا زَحّافَةً بِكِلابِها ، فَهِيَ الوَسيلَةُ الوَحيدَةُ لِلتَّجْوالِ فَوْقَ الجَليدِ ، وَبَعْدَها يُمْكِنُكَ أَنْ تُقْسِمَ صادِقًا ، أَنَّكَ سِرْتَ فَوْقَ مِياهِ البَحْرِ ، دونَ أَنْ تَكونَ كاذِبًا . »

عادَ السِّنْدِبادُ يَسْأَلُ في إِلْحاحٍ : « وَهَلْ تَجُرُّ الكِلابُ الأَشْياءَ هُناكَ مِثْلَ الخُيولِ في بِلادِنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ : « إِنَّها كِلابٌ مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ شَديدِ التَّوَحُّشِ ، تَعْوي كَالذِّئابِ ، وَلا تَنْبَحُ مِثْلَ بَقِيَّةِ الكِلابِ ، وَيَحْتاجُ كُلٌّ مِنْها إلى قَدْرٍ مِنَ اللَّحْمِ ، أَكْثَرَ مِمّا يَحْتاجُهُ صاحِبُها ، وَإِذا لَمْ يُقَيِّدْها جَيِّدًا في سُروجِها ، هاجَمَتْهُ وَالْتَهَمَتْهُ وَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ سِوى العِظامِ . »

وَاسْتَدارَ السِّنْدِبادُ عائِدًا إلى قَمْرَتِهِ في صَمْتٍ ، مُفَكِّرًا

في كُلِّ ما سَمِعَهُ مِنْ غَرائِبَ وَعَجائِبَ ، وَقَدْ أَخَذَهُ البَرْدُ الشَّديدُ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلى جَبَلٍ ثَلْجِيٍّ عائِمٍ ، يوشِكُ أَنْ يَنْقَضَّ على السَّفينَةِ مِنَ الخَلْفِ ، وَيُهَشِّمَها ، فَصَرَخَ بِأَعْلى صَوْتِهِ ، وَانْدَفَعَ إلى حِبالِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ ، يَجْذِبُها لِيُغَيِّرَ اتِّجاهَها . وَأَدْرَكَ البَحّارَةُ الزُّنوجُ ما يَحيقُ بِهِمْ مِنْ خَطَرٍ دونَ تَنْبيهٍ ، فَانْدَفَعوا يَتَسَلَّقونَ الأَشْرِعَةَ كَالقُرودِ الماهِرَةِ ، وَأَداروها بِسُرْعَةٍ لِتَسْتَقْبِلَ الرّيحَ مِنِ اتِّجاهٍ مُخالِفٍ ، فَغَيَّرَتِ السَّفينَةُ اتِّجاهَها في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ ، وَمَسَّتْ طَرَفَ جَبَلِ الجَليدِ في صَوْتٍ مُدَوٍّ ، وَتَهَشَّمَتْ بَعْضُ أَخْشابِ الحاجِزِ ، ثُمَّ انْفَلَتَتْ مُبْتَعِدَةً ، فَتَنَفَّسَ السِّنْدِبادُ الصُّعَداءَ ، وَقالَ في ارْتِياحٍ : « الحَمْدُ للهِ ! »

وَأَسْرَعَ بِإِصْلاحِ الحاجِزِ فَأَعادَهُ كَما كانَ . وَمِنْ بَعيدٍ لاحَتْ أَرْضٌ تَكْسوها بَعْضُ الأَشْجارِ المُغَطّاةِ بِالثُّلوجِ ، وَبَعْضُ الحَشائِشِ وَالطَّحالِبِ ، فَصَرَخَ السِّنْدِبادُ بِفَرْحَةٍ : « لَقَدْ وَصَلْنا لِلأَرْضِ . »

انْدَفَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ إلى الحاجزِ ، وَتَأَمَّلَ الشّاطِئَ البَعيدَ ، وَلَهِثَ بِفَرْحَةٍ قائِلاً : « إنَّها كَما وَصَفَها أَبي تَمامًا ، وَرَسَمَ مَكانَها فَوْقَ الخَرائِطِ في كِتابِهِ ، الَّذي أَوْدَعَهُ سِرًّا لَدَيَّ ، وَقَدْ بَيَّنَ فيها أَنَّ هُناكَ نَهْرًا قَريبًا ، عَلَيْنا عُبورُهُ ، لِنَصيرَ في قَلْبِ أَرْضِ الإسْكيمو ، وَعَلَيْنا بُلوغَهُ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

وَلَكِنَّ اللَّيْلَ أَطْبَقَ عَلى المَكانِ سَريعًا ، فَصارَ ظَلامًا حالِكًا لا يَلْمَعُ فيهِ شَيْءٌ ، سِوى النُّجومِ البَعيدَةِ .

وَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ : « عَلَيْنا بِالرُّسُوِّ على الشّاطِئِ ، وَالمَبيتِ حَتّى الصَّباحِ ، ثُمَّ نُواصِلُ إِبْحارَنا عِنْدَ شُروقِ الصَّباحِ . »

وَلَكِنَّ الشَّيْخَ قالَ قَلِقًا : « مَنْ يُدْرينا ؟ قَدْ يَتَجَمَّدُ البَحْرُ لَيْلاً . لا وَقْتَ لَدَيْنا ، وَعَلَيْنا العُثورُ عَلى مَصَبِّ النَّهْرِ القَريبِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ ، وَإلا وَقَعْنا في مِصْيَدَةٍ لا فِكاكَ مِنْها ، فَهَذا البَحْرُ إذا تَجَمَّدَ حَوْلَنا ، ضَغَطَ عَلى سَفينَتِنا وَهَشَّمَها بِضَغْطِهِ ، فَيُحَوِّلُها إلى أَلْواحٍ مُتَناثِرَةٍ مِنَ

الأَخْشابِ . »

أَخَذَ البَحّارَةُ المُجْهَدونَ يَعْمَلونَ دونَ شَكْوى ، وَقَدْ أَوْشَكوا عَلى التَّجَمُّدِ مِنَ البَرْدِ . وَعِنْدَ الفَجْرِ ظَهَرَ مَصَبُّ النَّهْرِ أَمامَهُمْ ، فَأَسْرَعوا بِاجْتِيازِهِ في تَهْليلٍ وَفَرْحَةٍ .

وَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِلسِّنْدِبادِ : « لا خَوْفَ الآنَ ، فَقَدْ صِرْنا في قَلْبِ أَرْضِ الجَليدِ ، وَعَلَيْنا بِالحُصولِ عَلى بَعْضِ الرّاحَةِ ، قَبْلَ شُروقِ شَمْسِ الصَّباحِ . »

وَأَمَرَ بَحّارَتَهُ فَانْقَسَموا لِفَريقَيْنِ يَتَناوَبانِ العَمَلَ وَالرّاحَةَ . وَأَوى الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ إلى قَمْرَتَيْهِما ، وَغَرِقا في نَوْمٍ عَميقٍ . ثُمَّ اسْتَيْقَظا في الصَّباحِ عَلى صُراخٍ عَنيفٍ ، وَخَرَجا فَوَجَدا البَحّارَةَ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِمُ الذُّهولُ ، وَهُمْ يُشيرونَ بِأَيْديهِمْ إشاراتٍ غَيْرَ مَفْهومَةٍ ، فَصَعِدَ السِّنْدِبادُ وَالشَّيْخُ رَشْدانُ لِسَطْحِ السَّفينَةِ ، فَوَقَعَتْ عُيونُهُما عَلى أَعْجَبِ مَشْهَدٍ يُمْكِنُ أَنْ تَراهُ عَيْنُ إِنْسانٍ .

كانَتِ السَّفينَةُ مُتَوَقِّفَةً مَكانَها ، وَقَدْ أَحاطَ بِها الجَليدُ

مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، بَعْدَ أنْ تَجَمَّدَ النَّهْرُ واسْتَحالَ عُبورُهُ .

كانَ المَشْهَدُ عَجيبًا مُدْهِشًا ، وَأغْرَبَ مِنَ الخَيالِ ، فَهَتَفَ السِّنْدِبادُ : « سُبْحانَ اللهِ ! »

وَهَزَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ رَأسَهُ قائِلاً : « كَما وَصَفَهُ أبي تَمامًا . »

وَسَألَ السِّنْدِبادُ رَفيقَهُ في دَهْشَةٍ : « لِماذا لَمْ يُهَشِّمْ جَليدُ النَّهْرِ سَفينَتَنا كَما كُنْتَ تَخْشى أنْ يَفْعَلَ بِنا البَحْرُ ، لَوْ تَجَمَّدَ حَوْلَنا ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « هَذا لأنَّ ضَغْطَ مِياهِ البَحْرِ إذا تَحَوَّلَتْ إلى جَليدٍ ، يَكونُ أقْسى آلافَ المَرّاتِ مِنْ ضَغْطِ جَليدِ النَّهرِ . »

هَزَّ السِّنْدِبادُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ تَساءَلَ وَهُوَ يَتَطَلَّعُ حَوْلَهُ : « وَما العَمَلُ الآنَ ؟ كَيْفَ سَنَجولُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « لَيْسَ أمامَنا سِوى اسْتِئْجارِ أَوْ شِراءِ زَحّافَةٍ بِكِلابِها ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْنا العُثورَ على دَليلٍ

مِنْ أهالي تِلْكَ الأرْضِ لِيُرْشِدَنا إلى مَكانِ القُرْصانِ ، فَلا شَكَّ أنَّهُ شوهِدَ في هَذِهِ الأنْحاءِ ، بِسَبَبِ اخْتِلافِ لَوْنِهِ . »

سَألَ السِّنْدِبادُ : « أيْنَ سَنَعْثُرُ عَلى هَذا الدَّليلِ وَالزَّحّافَةِ وَكِلابِها ؟ »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدان : « لَسْتُ أدْري . وَلَكِنْ لَيْسَ أمامَنا مِنْ سَبيلٍ غَيْرُ البَحْثِ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في تَوَتُّرٍ : « لَوْ أنَّنا غادَرْنا السَّفينَةَ ، لَتَجَمَّدْنا فَوْقَ الجَليد . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مُطَمْئِنا : « سَوْفَ نُضاعِفُ مِنْ مَلابِسِنا وَجُلودِ الخِرافِ ، وَسَنَصْنَعُ أَحْذِيَةً مِنْها أيْضًا ، وَلَنْ يُعيقَنا شَيْءٌ عَنْ مُهِمَّتِنا ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْنا مُغادَرَةُ سَفينَتِنا قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ الجَليدُ حَوْلَ السَّفينَةِ ، وَيَصيرَ صالِحًا لِلسَّيْرِ فَوْقَهُ ، وَعَلَيَّ أيْضًا حَلْقَ لِحْيَتي ، وَإلا تَحَوَّلَ هَواءُ زَفيري السّاخِنُ ، إلى نُدَفٍ مِنَ الثَّلْجِ فَوْقَها ، بِسَبَبِ تَجَمُّدِهِ لَحْظَةَ خُروجِهِ مِنْ فَمي . »

تأمّلَ السِّنْدبادُ الشَّيْخَ رَشْدان صامتًا ، وَخلالَ ساعاتِ النَّهارِ الَّتي لَمْ تُشْرِقْ فيها الشَّمْسُ غَيْرَ ساعةٍ إلا قليلاً ، تمكّنا مِنْ صُنْعِ المَلابسِ وَالأحْذيَةِ المَطْلوبةِ ، وَبَقيا فَوْقَ السَّفينَةِ ثَلاثَةَ أيّام ، حَتّى اسْتَوْثَقا مِنْ تَصلُّبِ الجَليد حَوْلَها ، فَحَلَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِحيَتَهُ بالمُوسى ، وَبَدا مَنْظَرُهُ مُخْتَلِفًا بَعْضَ الشَّيْءِ في عَيْني السِّنْدبادِ .

وَتَسلَّحَ السِّنْدبادُ بِبَلْطَةٍ وَسِكّينٍ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَتَأهّبا لِمُغادَرَةِ السَّفينَةِ . وَأَوْصى الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بِعَدَمِ مُغادَرَةِ السَّفينَةِ ، وَهَبَطَ فَوْقَ الجَليدِ بِالْحِبالِ مَعَ السِّنْدبادِ ، ثُمَّ سارا فَوْقَ الجَليدِ الزَّلِقِ النّاعِمِ .

وَاسْتَمَرَّ الاثْنانِ في سَيْرِهِما ساعاتٍ فَوْقَ الجَليد . وَصادَفا عَديدًا مِنَ الثَّعالِبِ والأرانِبِ البَرِّيَّةِ ، ثُمَّ جَلَسا لِلرّاحَةِ وَتَناوَلا بَعْضَ الطَّعامِ الَّذي حَمَلاهُ مَعَهُما . وَبَعْدَها بَدأتِ الرِّياحُ تَشْتَدُّ وَتَصْفِرُ ، فَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ قَلِقًا : « يَبْدو أنَّ عاصِفَةً ثَلْجيَّةً سَتَهُبُّ بَعْدَ قَليلٍ ، وَعَلَيْنا البَحْثُ عَنْ مَكانٍ نَلْتَجِئُ إلَيْهِ . »

وَعَبَرا صَفْحَةَ النَّهْرِ المُتَجَمِّدِ إلى الأرْضِ الجَليديَّةِ الَّتي انْتَشَرَتْ فيها التِّلالُ ، باحِثَيْنِ عَنْ بَعْضِ الأشْجارِ أوْ أحَدِ الكُهوفِ ، وَلَكِنَّهُما تَوَقَّفا بَعْدَ قَليلٍ مَرْعوبَيْنِ ؛ فَأمامَهُما عَلى مَسافَةِ أمْتارٍ قَليلَةٍ ، شاهَدا دُبًّا مُتَوَحِّشًا ضَخْمًا قَدِ انْتَصَبَ فَوْقَ قَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ .



وَزَأرَ الدُّبُّ في وَحْشيَّةٍ ، ثُمَّ اندفعَ نحوَهُما ، وَقَدْ أعْماهُ الجوعُ . وَصرخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « حاذِرْ ، يا سِنْدِبادُ . »

وَلكنَّ الدُّبَّ اتَّجهَ إلى الشَّيْخِ لا السِّنْدِبادِ ، وَهوى فوقَ صَدْرِهِ بذِراعِهِ ، فَطوَّحَ بالشَّيْخِ رَشْدانَ بعيدًا غارقًا في دِمائِهِ . وَانفجرَ غَضَبُ السِّنْدِبادِ ، فَانْدفعَ نَحْوَ الدُّبِّ ، قَبْلَ أنْ يَقومَ بتمْزيقِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقفزَ فَوْقَ ظَهْرِهِ وَعاجَلَهُ بِضرْبَةٍ مِنْ بَلْطَتِهِ في صَدْرِهِ فَأصابَتْ قَلْبَهُ، فَزأرَ الدُّبُّ في تَوَحُّشٍ وَسالَتْ دِماؤهُ ، ثُمَّ تَجمَّدَتْ ، وَلكنَّهُ عاجَلَ السِّنْدِبادَ بِضرْبَةٍ قاسيةٍ أفْقَدَتْهُ وَعْيَهُ ، ثُمَّ ترَنَّحَ الدُّبُّ وَسَقطَ مَيِّتًا دونَ حَراكٍ .

الفَصْلُ السّادِسُ
عَجائِبُ أرْضِ الجَليدِ

لَمْ يَدْرِ السِّنْدِبادُ كَمْ مِنَ الوَقْتِ انقَضى عِنْدَما فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَطالَعَتْهُ غِشاوَةٌ لَمْ يُمَيِّزْ بِسَبَبِها الأشْياءَ حَوْلَهُ .

وَأحَسَّ بآلامٍ في كُلِّ جَسَدِهِ وَكَأنَّ جَبَلاً تَهاوى فَوْقَهُ . وَتَذكَّرَ كُلَّ ما مَرَّ بِهِ وَصِراعَهُ مَعَ الدُّبِّ المُخيفِ . وَتَساءَلَ السِّنْدِبادُ إنْ كانَ لا يَزالُ حَيًّا ، أمْ أنَّهُ انْتَقَلَ إلى العالَمِ الآخَرِ ؟

وَتذكَّرَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ فَنَدَّتْ عَنْهُ آهَةُ ألَمٍ ، وَجاهَدَ لِيَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَتَنَبَّهَ إلى أنَّهُ راقِدٌ في مَكانٍ غَريبٍ ، كانَ أشْبَهَ بِحُجْرَةٍ واسِعَةٍ غُطِّيَتْ جُدْرانُها بِجُلودٍ لِحَيَواناتٍ غَريبَةٍ ذاتِ فِراءٍ كَثيفٍ . وَقَدْ تَدلَّتْ مِنَ الحَوائِطِ مَجْموعَةٌ مِنَ الحِرابِ وَفُكوكِ أسْنانٍ غَريبَةٍ

لِحيَوانات يَجهلُها .

وَشاهَدَ في الرُّكْنِ إناءً مُفَلْطَحًا يَمْتَلِئُ بزَيْتٍ غَريبٍ غُمِسَتْ فيهِ زُبالَةٌ مِنَ الطَّحالِبِ الجافَّةِ ، الَّتي اشْتَعَلَ طَرَفُها فَأضاءَتِ المَكانَ بقَبَسٍ مِنَ النّورِ . وَكانَ الفِراشُ الَّذي يَرْقُدُ عَلَيْهِ ناعِمًا لَيِّنًا ، وَلَكِنْ بالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بقَليلٍ مِنَ البَرْدِ فَانْكَمَشَ في رَقْدَتِهِ . وَتَنَبَّهَ إلى أنَّهُ يَرْتَدي مَلابِسَ غَريبَةً : قَميصًا مِنْ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَغِطاءً لِلرَّأْسِ ، وَقُفّازًا مَصْنوعًا مِنْ فَرْوٍ عَجيبٍ ، وَسِرْوالاً مِنَ الفِراءِ أَيْضًا .

وَحاوَلَ السِّنْدِبادُ أَنْ يَنْهَضَ وَيُغادِرَ فِراشَهُ ، وَلَكِنَّ قُوَّتَهُ لَمْ تُطاوِعْهُ ، وَشَعَرَ بإعْياءٍ ، وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ يَسْمَعُ أَصْواتَ نُباحِ كِلابٍ بَعيدَةٍ . وَكانَ صَوْتُ النُّباحِ أَقْرَبَ إلى العُواءِ ، وَيَخْتَلِطُ بزَمْجَرَةِ عاصِفَةٍ عاتِيَةٍ ، ثُمَّ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بالنُّعاسِ يَغْزو جَفْنَيْهِ ، فاسْتَغْرَقَ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَبَعْدَ وَقْتٍ تَناهَتْ إلى أُذُنَيْهِ أَصْواتٌ قَريبَةٌ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ في بُطْءٍ فَطالَعَهُ وَجْهٌ غَريبٌ يُحَدِّقُ فيهِ عَلى مَسافَةٍ

قَريبَةٍ ؛ وَقَدِ ارْتَدى صاحِبُهُ غِطاءً لِلرَّأْسِ غَريبَ الشَّكْلِ ، امْتَدَّ مِنْ رَأْسِهِ وَحَتّى كَتِفَيْهِ ، فَشَهَقَ السِّنْدِبادُ لِلْمُفاجَأَةِ ،



وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الغَريبَ مَدَّ يَدَهُ يُرَبِّتُ فَوْقَ وَجْنَةِ السِّنْدِبادِ مُطَمْئِنًا ، وَالْتَقَطَ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ قِدْرًا بِها حَساءٌ كانَ قَدْ وَضَعَهُ فَوْقَ بَعْضِ الحَطَبِ المُتَّقِدِ ، وَمَدَّهُ إلى السِّنْدِبادِ الَّذي الْتَقَطَهُ مِنْهُ ، وَشَرَعَ في احْتِسائِهِ بِرَغْمِ سُخونَتِهِ ، حَتّى أتى عَلَيْهِ . كانَ مَذاقُ الحَساءِ غَريبًا لَكِنَّهُ مَقْبولُ الطَّعْمِ ، وَفي نِهايَةِ القِدْرِ وَجَدَ سِنْدِبادُ بَعْضَ قِطَعِ اللَّحْمِ فَالْتَهَمَها في سُرورٍ ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى مُضيفِهِ شاكِرًا .

وَأدْرَكَ السِّنْدِبادُ أنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مِنْ سُكّانِ تِلْكَ الأَرْضِ المُتَجَمِّدَةِ ، وَأنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ إنْقاذِهِ بِطَريقَةٍ ما . وَاحْتارَ كَيْفَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَصيرِ الشَّيْخِ رَشْدانَ وَهُوَ يَجْهَلُ لُغَتَهُ . وَفَجْأَةً قالَ الرَّجُلُ لَهُ في لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ صَحيحَةٍ ذاتِ لُكْنَةٍ غَريبَةٍ : « هَلْ تَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ ؟ »

اِنْتَفَضَ السِّنْدِبادُ وَتَطَلَّعَ إلى الرَّجُلِ مَذْهولاً ، وَقالَ لَهُ : « إنَّكَ تَتَحَدَّثُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحى ، فَكَيْفَ تَعَلَّمْتَها ؟ »

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقالَ : « لِهَذا الأمْرِ حِكايَةٌ طَويلَةٌ لَيْسَ

هَذا وَقْتَها . وَلَعَلَّكَ قَلِقٌ عَلى صَديقِكَ الشَّيْخِ وَتَرْغَبُ في الاطْمِئْنانِ عَلَيْهِ ؟ »

قالَ السِّنْدِبادُ بِلَهْفَةٍ : « أخْبِرْني ، ماذا جَرى لِلشَّيْخِ رَشْدان ؟ »

أَجابَهُ الرَّجُلُ مُتَرَفِّقًا : « إنَّهُ يَرْقُدُ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ مِنَ الثَّلْجِ ، صَنَعْتُهُ لَهُ خِصّيصًا وَجَهَّزْتُهُ بِكُلِّ ما يَحْتاجُهُ ، وَقَدْ أَوْشَكَ عَلى التَّعافي ، وَلَكِنَّ إصابَتَهُ تَحْتاجُ لِبَعْضِ الوَقْتِ لِكَيْ تَلْتَئِمَ ؛ فَقَدْ أَصابَهُ الدُّبُّ بِجِراحٍ عَميقَةٍ في صَدْرِهِ ، وَلَوْلا الجَليدُ لَنَزَفَ حَتّى المَوْتِ ، وَلَكِنَّ البَرْدَ جَمَّدَ جِراحَهُ فَتَوَقَّفَتْ عَنِ النَّزيفِ .

وَصَمَتَ الرَّجُلُ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ لِلسِّنْدِبادِ : « إنَّكَ بَطَلٌ ، أيُّها الفَتى ، فَقَدْ تَمَكَّنْتَ وَحْدَكَ مِنْ قَتْلِ أَضْخَمِ دُبٍّ شاهَدْتُهُ في حَياتي ، وَما كانَ في اسْتِطاعَةِ عَشَرَةِ أَشْخاصٍ أَنْ يُنازِلوهُ مُجْتَمِعينَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُتَأَلِّمًا : « ما كانَتْ حَياتي تَهُمُّني ، وَلَمْ

أُصارِعِ الدُّبَّ بِرَغْبَةٍ حارَّةٍ في النَّجاةِ وَالحَياةِ ؛ إلا لإنْقاذِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَهُوَ مِنّي في مَنْزِلَةِ الأبِ والمُعَلِّمِ . »

« ما أكْرَمَ أخْلاقَكَ ، أيُّها الفَتى ، فَهِيَ مُتَوَهِّجَةٌ مُتألِّقَةٌ مِثْلُ شَجاعَتِكَ !»

« وَلَكِنْ أَخْبِرْني كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَيْنا وَأنْقَذْتَ حَياتَنا ؟»

« لَمْ يَكُنْ لي في ذَلِكَ فَضْلٌ كَبيرٌ ، بَلْ كانَ الفَضْلُ لِكِلابي مِنْ فَصيلَةِ الهَسْكي ، وَهِيَ الكِلابُ الَّتي نَسْتَعْمِلُها في جَرِّ الزَّحّافاتِ ، وَقَدْ فاجَأتْني العاصِفَةُ أَنا وَكِلابي قَبْلَ يَوْمَيْنِ ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَدْفِنَنا تَحْتَها . وَكانَتِ الكِلابُ توشِكُ عَلى المَوْتِ جوعًا ، وَلَكِنَّها شَمَّتْ رائِحَةَ الدُّبِّ القَتيلِ مِنْ مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ؛ فَحادَتْ عَنْ طَريقِها وَجَرَّتِ الزَّحّافَةَ رَغْمًا عَنّي إلى مَكانِ الدُّبِّ ، الَّذي أَوْشَكَتِ الثُّلوجُ عَلى دَفْنِهِ تَحْتَها ، فانقَضَّتْ عَلَيْهِ الكِلابُ تَنْهَشُهُ وَتُمَزِّقُ لَحْمَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكَ أَوْ لِلشَّيْخِ مِنْ أَثَرٍ ، وَلَكِنّي أَدْرَكْتُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا أَوْ أَشْخاصًا قَريبينَ ، كانَ مَصْرَعُ الدُّبِّ عَلى أَيْديهِمْ ، فَشَرَعْتُ أَنْبُشُ

في الثَّلْجِ بِرَغْمِ العاصِفَةِ ، فَعَثَرْتُ عَلَيْكُما وَقَدْ أَوْشَكْتُما عَلى التَّجَمُّدِ وَالمَوْتِ ، فَقُمْتُ بِتَمْديدِكُما فَوْقَ الزَّحّافَةِ ، وَسَلَخْتُ جِلْدَ الدُّبِّ وَغَطَّيْتُكُما بِهِ ، وَأَسْرَعْتُ عائِدًا بِكُما إلى مَنْزِلي هَذا . وَما كانَ المَنْزِلُ الصَّغيرُ لِيَتَّسِعَ لأَكْثَرَ مِنْ واحِدٍ مِنْكُما ؛ فَشَرَعْتُ في تَشْييدِ مَنْزِلٍ آخَرَ مِنَ الثَّلْجِ لِرَفيقِكَ الشَّيْخِ . »

ارْتَجَفَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يَقولُ : « مَنْزِلٌ مِنَ الثَّلْجِ ؟ ما أَشَدَّ بُرودَتَهُ !»

أَجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو مُبْتَسِمًا : « بَلْ ما أَدْفَأَهُ . فَإِنَّهُ يَعْمَلُ كَعازِلٍ وَيَصُدُّ البُرودَةَ الَّتي لا يُمْكِنُها أَنْ تَتَسَلَّلَ داخِلَهُ ، وَبَعْدَ تَغْطِيَةِ جُدْرانِهِ بِجُلودِ حَيَوانِ الكاريبو ، فَإِنَّهُ يُصْبِحُ دافِئًا وَمُناسِبًا تَمامًا لِلْحَياةِ بِداخِلِهِ . وَلَعَلَّكَ تَشْعُرُ بِالدِّفْءِ في هَذا المَنْزِلِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنْ أَنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنَ الثَّلْجِ أَيْضًا !»

تَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ حَوْلَهُ وَتَساءَلَ في دَهْشَةٍ : « هَلْ هَذا المَكانُ الَّذي أَرْقُدُ فيهِ ، مَصْنوعٌ مِنَ الثَّلْجِ أَيْضًا ؟»

أوْمَأ الرَّجُلُ بِرأسِهِ مُجيبًا بنعم وَقالَ : « إنَّ هَذهِ المَساكِنَ الثَّلْجيَّةَ يَبْنيها سُكّانُ هَذهِ البلادِ عادَةً عِنْدَ خُروجِهِمْ لِلصَّيْدِ وَابْتِعادِهِمْ عَنْ بُيوتِهِمُ الأَصْليَّةِ ، فَقَدْ يُضْطَرُّ أَحَدُنا لِلْبَقاءِ فيها شُهورَ الشِّتاءِ كامِلَةً مَعَ كِلابِهِ قَبْلَ أنْ يَعودَ لأَهْلِهِ بِما صادَهُ . »

« ما أَغْرَبَ هَذِهِ الأَرْضَ وَالحَياةَ فَوْقَها ! »

« أنتَ لَمْ تَرَ شَيْئًا بَعْدُ مِنْ عَجائِبِها وَطَرائِفِها . »

« هَلْ يُمْكِنُني الاطْمِئْنانُ عَلى الشَّيْخِ رَشْدان وَرُؤْيَتُهُ ؟ »

قالَ رَجُلُ الإسْكيمو الَّذي عَلِمَ السِّنْدبادُ أنَّ اسْمَهُ « ليمو » : « هَيّا بِنا . وَلَكِنْ عَلَيْكَ أنْ تَرْتَدِيَ هَذا الحِذاءَ أَوَّلاً . »

وَقَدَّمَ إلى السِّنْدِبادِ حِذاءً مَصْنوعًا مِنْ جِلْدٍ غَريبِ الشَّكْلِ ، فَتَأَمَّلَهُ السِّنْدِبادُ حائِرًا ، فَقالَ لَهُ ليمو: « لَقَدْ صَنَعْتُهُ عَلى مَقاسِكَ مِنْ جِلْدِ عِجْلِ البَحْرِ . »

اِرْتَدى السِّنْدِبادُ الحِذاءَ صامِتًا . وَلَشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتُهُ

عِنْدَما شاهَدَ رَجُلَ الإسْكيمو يُغادِرُ المَنْزِلَ الثَّلْجيَّ مِنْ خِلالِ فُتْحَةٍ صَغيرَةٍ أَسْفَلَ رُكْنِ المَنْزِلَ ، مَرَّ مِنْ خِلالِها زاحِفًا فَتَبِعَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدْ أدْرَكَ أنَّ تِلْكَ المَنازِلَ لا تُقامُ فيها نَوافِذُ أَوْ أَبْوابٌ . وَفي الخارِجِ كانَتِ السَّماءُ مُظْلِمَةً إلا مِنْ ضَوْءٍ بَعيدٍ غَريبٍ ، أَشْبَهَ بِحُزَمٍ مِنَ الضَّوْءِ الخافِتِ المَشوبِ بِصُفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ خَفيفَةٍ عَجيبَةٍ ، أَتاحَتْ لَهُ تَأَمُّلَ تَفاصيلِ المَكانِ . وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ مَنْزِلاً اخَرَ صَغيرًا عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ ، وَعَدَدًا كَبيرًا مِنَ الكِلابِ المَرْبوطَةِ في زَحّافَةٍ كَبيرَةٍ، وَقَدْ رَقَدَتْ في الثَّلْجِ مُتَجاوِرَةً لِتُدْفِئَ بَعْضُها بَعْضًا . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَكٍّ أنَّ الكِلابَ وَالزَّحّافَةَ تَخُصُّ ليمو .

وَدَخَلَ الاثْنانِ المَسْكَنَ الثَّلْجيَّ الآخَرَ زاحِفَيْنِ ، وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ راقِدًا فَوْقَ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَقَدْ أَشْعَلَ ليمو بَعْضَ النّارِ داخِلَ المَسْكَنِ لِتَدْفِئَتِهِ ، فاحْتَضَنَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، الَّذي فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلاماتُ الأَلَمِ ، وَغَمْغَمَ بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالنَّوْمِ

هاتِفًا بِاسْمِ سِنْدِبادَ ، ثُمَّ عادَ إلى سُباتِهِ العَميقِ ؛ فَامْتَلأَتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ بِالدُّموعِ وَلَكِنَّ ليمو رَبَّتَ فَوْقَ كَتِفِهِ قائِلاً : « سَوْفَ يُشْفى وَيَسْتَعيدُ قُواهُ خِلالَ أَيّامٍ ، فَاطْمَئِنَّ . »

وَلَمْ يَسْتَطِعِ السِّنْدِبادُ كَتْمَ فُضولِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ ليمو عَنْ سِرِّ تَعَلُّمِهِ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ؛ فَأَجابَهُ : « لَقَدْ عَلَّمَني إيّاها رَجُلٌ أَتى يَوْمًا أَرْضَنا ، وَعاشَ هَذا الرَّجُلُ بَيْنَ قَوْمِنا زَمَنًا ، وَأَخْبَرَني أَنَّهُ أَتى مِنْ بِلادٍ بَعيدَةٍ تُدْعى بَغْدادَ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ : « لا بُدَّ أَنَّ هَذا الرَّجُلَ هُوَ والِدُ الشَّيْخِ رَشْدانَ . »

قالَ ليمو : « هَذا هُوَ ما خَمَّنْتُهُ ، فَلِهَذا الرَّجُلِ شَبَهٌ قَوِيٌّ مَعَ رَفيقِكَ . وَلَكِنْ أَخْبِرْني ، أَيُّها الفَتى ، أَيُّ سَبَبٍ أَتى بِكُما إلى أَرْضِنا الوَعْرَةِ وَجَليدِها الدّائِمِ ؟ »

فَقَصَّ السِّنْدِبادُ عَلى ليمو سِرَّ مَجيئِهِ هُوَ وَالشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَبَحْثِهِما عَنِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ الَّذي اخْتَطَفَ

ابْنَةَ الشَّيْخِ الوَحيدَةَ ، فَضاقَتْ عَيْنا ليمو وَقالَ : « هَلْ جِئْتُما في طَلَبِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ ؟ »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَهَلْ تَعْرِفُ مَكانَهُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟ »

أَجابَهُ رَجُلُ الإِسْكيمو : « نَعَمْ ، فَإِنَّ سَوادَ بَشَرَتِهِ وَكَأَنَّها اللَّيْلُ جَعَلَتْهُ شَهيرًا في أَرْضِنا ، فَقَدْ جاءَ إِلَيْها قَبْلَ عامٍ وَنِصْفٍ دونَ أَنْ يُفْصِحَ عَنْ سَبَبِ مَجيئِهِ إلى أَرْضِنا البارِدَةِ ، وَقَدْ حَمَلَ مَعَهُ صَناديقَ لا حَصْرَ لَها مَليئَةً بِالذَّهَبِ وَالجَواهِرِ وَالنَّفائِسِ ، وَحاوَلَ أَنْ يَعيشَ بَيْنَ قَوْمِنا ، وَأَنْ يَمْنَحَهُمْ مِنْ ذَهَبِهِ وَثَرْوَتِهِ ما يَشاءونَ ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضوهُ بِسَبَبِ غَرابَةِ لَوْنِهِ الَّذي لَمْ يَعْتادوا عَلَيْهِ ، كَما أَنَّ حُكَماءَ أَرْضِنا قالوا إِنَّ الشَّرَّ يَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْ ذَلِكَ الغَريبِ الأَسْوَدِ ، وَإِنَّ روحَهُ يَسودُها الظَّلامُ ، وَإِنَّ اللَّعْنَةَ تَحِلُّ عَلى أَيِّ مَكانٍ تَطَؤُهُ قَدَماهُ ، لِذَلِكَ رَفَضَهُ أَهْلُنا فَاضْطُرَّ لِلإِقامَةِ وَحيدًا مَنْبوذًا عَلى أَطْرافِ أَرْضِنا ، لا يَزورُ أَوْ يُزارُ . وَالآنَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ ما قالَهُ حُكَماؤُنا

وَعَلموهُ بِبَصيرتِهِمْ ، هُوَ حَقيقَةٌ ، وَأَنَّ هَذا الرَّجُلَ أَشَرُّ مِمّا قَدَّرْنا . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « هَلْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ القُرْصانَ صَبِيَّةٌ جَميلَةٌ في نَفْسِ عُمْري ؟ »

أَجابَهُ رَجُلُ الإِسْكيمو : « لَسْتُ أَدْري ، فَقَدْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ الشِّرّيرَ الكَثيرُ مِنَ الأَتْباعِ ، مُخْتَلِفي الأَعْمارِ وَالوُجوهِ وَالأَلْوانِ . »

هَبَّ السِّنْدِبادُ واقِفًا في حَماسٍ ، وَهُوَ يَقولُ : « إِذَنْ خُذْني إِلى هَذا القُرْصانِ الشِّرّيرِ في الحالِ . »

أَجابَهُ ليمو : « أَ لَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَنْتَظِرَ اسْتِعادَةَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ لِقُواهُ ، فَنَصْحَبَهُ مَعَنا ؟ فَإِنَّ الأَمْرَ يَخُصُّهُ قَبْلَنا ، كَما أَنَّ الوُصولَ إِلى مَكانِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ لَنْ يَسْتَغْرِقَ أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ خِلالَ هَذِهِ المُدَّةِ تَرْكَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ وَحْدَهُ ، وَإِلا هَلَكَ ، لأَنَّهُ في حاجَةٍ لِمَنْ يَعْتَني بِهِ حَتّى يَسْتَرِدَّ قُوَّتَهُ . »

أَطْرَقَ السِّنْدِبادُ بِرَأْسِهِ ، وَقالَ : « صَدَقْتَ ، أَيُّها الرَّجُلُ . »

وَمَرَّ أَكْثَرُ مِنْ شَهْرٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَعيدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عافِيَتَهُ وَيَتَمَكَّنَ مِنْ مُغادَرَةِ فِراشِهِ وَتَلْتَئِمَ جِراحُهُ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ اخْتَفَتِ الشَّمْسُ عَنْ قَلْبِ السَّماءِ تَمامًا ، وَسادَ الظَّلامُ لَيْلَ نَهارَ لا يَقْطَعُهُ بَصيصُ ضَوْءٍ ، غَيْرَ أَنْوارِ الشَّفَقِ الغامِضَةِ الخافِتَةِ . وَغَمْغَمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ السَّماءَ بَعْدَ تَمامِ شِفائِهِ : « لا أُصَدِّقُ أَنَّني قَدْ سَأَبْلُغُ مَكانَ هَذا القُرْصانِ الأَسْوَدِ أَخيرًا ، وَأَهْتَدي إِلى مَكانِ ابْنَتي الغالِيَةِ . »

وَمَسَحَ دَمْعَةً تَجَمَّدَتْ فَوْقَ وَجْنَتَيْهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « أَرْجو أَنْ أَجِدَها حَيَّةً تُرْزَقُ ، وَأَلا يَكونَ قَدْ نالَها سوءٌ عَلى يَدَيْ هَذا الوَغْدِ الشِّرّيرِ . »

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ مُتَرَفِّقًا : « فَلْتَدْعُ اللهَ إِلى ذَلِكَ ، فَهُوَ سَميعٌ مُجيبٌ . »

فاحْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ ، وَقالَ لَهُ : « لا أدري كَيْفَ أُكافِئُكَ عَلى جَميلِكَ ، أيُّها الفتى ، فَلَوْلاكَ لَما أَمْكَنَني المُخاطَرَةُ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلأَهْلَكَتْني المَصاعِبُ وَالوُحوشُ الَّتي صادَفَتْنا . »

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ : « لَوْ أَنَّ الزَّمَنَ قَدْ عادَ بِنا وَسَأَلْتَني أَنْ أُرافِقَكَ هَذِهِ الرِّحْلَةَ مَرَّةً أُخرى- لَما تَرَدَّدْتُ بِرَغْمِ ما واجَهْتُهُ مِنْ مَخاطِرَ ، فَما أَسْوَأَ حَياتي الَّتي أَمْضَيْتُها مُتَبَطِّلاً كَسولاً في بَغْدادَ، وَما أَغْرَبَ ما شَهِدْتُ مِنْ عَجائِبَ في كُلِّ مَكانٍ زُرْناهُ . »

وَأَخيرًا حانَ مَوْعِدُ الرَّحيلِ إلى مَكانِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ ، فَتَأَهَّبَ ليمو لِذَلِكَ ، وَحَمَلَ مَتاعَهُ وَأَشْياءَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ الثَّلْجِيِّ إلى زَحّافَتِهِ ، وَأَجْلَسَ الشَّيْخَ رَشْدانَ في زَحّافَتِهِ ، وَاسْتَعَدَّ لِيَقْطَعَ المَسافَةَ الكَبيرَةَ مَعَ السِّنْدِبادِ ، سَيْرًا فَوْقَ الأَقْدامِ .

وَبَدَأَتِ الرِّحْلَةُ في لَيْلٍ لا يَنْتَهي بَعْدَ أَنْ غابَتِ الشَّمْسُ وَراءَ الأُفُقِ ، وَلَمْ تَطْلُعْ مَرَّةً أُخْرى .

الفَصْلُ السّابِعُ

نِهايَةُ القُرْصانِ الأَسْوَدِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّحْلَةُ شَهْرًا بِأَكْمَلِهِ ، كانَتِ الكِلابُ خِلالَها تَجُرُّ الزَّحّافَةَ نِصْفَ اليَوْمِ وَتَرْتاحُ نِصْفَهُ الآخَرَ ، فَيَقومُ السِّنْدِبادُ وَرَجُلُ الإسْكيمو ليمو بِصَيْدِ عُجولِ البَحْرِ .

وَذاتَ يَوْمٍ لاحَ مِنْ بَعيدٍ هَيْكَلٌ ضَخْمٌ دُفِنَ في الجَليدِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ غَيْرُ نابَيْ فيلٍ كَبيرَيْنِ ، فَتَوَقَّفَ السِّنْدِبادُ أَمامَهُ مَدْهوشًا ، وَقالَ ليمو في سُرورٍ : « هَذا الشَّيْءُ هُوَ نابا فيلِ الماموث . إنَّ أَنْيابَ هَذِهِ الفِيَلَةِ تُساوي ثَرْوَةً ، وَالتِّجارَةُ فيها عِنْدَنا تُحَقِّقُ أَرْباحًا طائِلَةً. لَقَدْ أَسْعَدَني الحَظُّ بِرُفْقَتِكُما ؛ فَقَدْ عَثَرَ أَبي أَيْضًا عَلى نابَيْ فيلٍ ، وَهُوَ يُقَدِّمُ خِدْماتِهِ لأَبيكَ الرّاحِلِ أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « الحَمْدُ للهِ ، إِنَّها بادِرَةُ خَيْرٍ . »

وَتَعاوَنَ الثَّلاثَةُ عَلى اسْتِخْراجِ نابَي الفيلِ وَحَمَلاهُ إلى الزَّحّافَةِ ، وَ واصَلوا رِحْلَتَهُمْ ، إلى أنْ لاحَ مَسْكَنٌ صَغيرٌ مُشَيَّدٌ مِنَ الخَشَبِ وَالطّينِ تُحيطُ بِهِ الثُّلوجُ ، وَأَوْشَكَتْ أنْ تَدْفِنَهُ تَحْتَها ، فَتَوَقَّفَ الرَّكْبُ ، وَأَشارَ ليمو إلى المَنْزِلِ قائِلاً : « هُنا يَسْكُنُ القُرْصانُ الأَسْوَدُ . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَعَجِّبًا : « إنَّ المَكانَ يَبْدو مَهْجورًا ، وَأَخْشى أنْ يَكونَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ قَدْ غادَرَهُ . »

احْمَرَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقالَ : « إنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني بِأَنَّني سَأَجِدُ بُغْيَتي في الدّاخِلِ ، وَأَكادُ أَسْمَعُ أَنْفاسَ هَذا القُرْصانِ ، الَّذي يُلَوِّثُ الجَوَّ بِالْهَواءِ الَّذي يَتَنَفَّسُهُ . »

وَانْدَفَعَ نَحْوَ المَسْكَنِ ، وَأَزاحَ الثَّلْجَ المُتَراكِمَ فَوْقَ بابِهِ ، فَتَكَشَّفَتْ لَهُ رَدْهَةٌ غارِقَةٌ في الظَّلامِ وَحُجُراتٌ يَشْمَلُها صَمْتٌ مُطْبِقٌ ؛ فَصاحَ بِقُوَّةٍ : « أَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ هُنا ؟ »

وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ آهَةً واهِنَةً تَأْتيهِ مِنْ إحْدى الحُجُراتِ ، فَانْدَفَعَ إلَيْها وَرَفَعَ بابَها ، فَتَحَطَّمَ وَتَهاوى . وَ وَقَفَ

الشَّيْخُ رَشْدانُ مَكانَهُ يُحَدِّقُ في الحُجْرَةِ المُظْلِمَةِ البارِدَةِ ، وَبَعْدَ لَحَظاتٍ بَدَأَتْ عَيْناهُ تَعْتادانِ الظَّلامَ ، فَشاهَدَ شَخْصًا مُمَدَّدًا فَوْقَ الأَرْضِ الخَشَبِيَّةِ ، وَهُوَ يَئِنُّ وَيَتَوَجَّعُ ، وَقَدْ نَحَلَ جَسَدُهُ فَصارَ كَأَنَّهُ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ . وَحَدَّقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ فيهِ ، وَتَفَرَّسَ في لَوْنِ بَشَرَتِهِ الأَسْوَدِ ، وَتَساءَلَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « القُرْصانُ الأَسْوَدُ ؟ »

فَنَدَّتْ عَنِ القُرْصانِ آهَةُ أَلَمٍ أَحْرَقَتْ صَدْرَهُ ، وَأَقْبَلَ السِّنْدِبادُ وَليمو ، وَحَدَّقا في المَشْهَدِ أَمامَهُما ذاهِلَيْنِ ، وَانْحَنى الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى القُرْصانِ المُحْتَضَرِ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « إنَّني لا أُصَدِّقُ ما أَراهُ أَمامي . أَ أَنْتَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ حَقًّا ، الَّذي كانَ اسْمُهُ يُثيرُ الرَّجْفَةَ في القُلوبِ وَالرِّعْدَةَ في الأَبْدانِ ؟ أَيَّةُ كارِثَةٍ أَصابَتْكَ ؟ »

جاهَدَ القُرْصانُ لِلْكَلامِ ، وَقالَ بِمَشَقَّةٍ وَبِصَوْتٍ كَأَنَّهُ خارِجٌ مِنْ بِئْرٍ : « لَقَدْ هَجَرَني أَتْباعي ، وَنَهَبوا كُلَّ كُنوزي الَّتي جَلَبْتُها إلى هَذِهِ الأَرْضِ ، وَحَتّى الحَشِيَّةَ الَّتي كُنْتُ أَنامُ عَلَيْها ضَنّوا عَلَيَّ بِها ، وَتَرَكوني وَحيدًا

أُعاني سكرات المَوْتِ في تِلْكَ الأَرْضِ ، بَلْ إنَّني لَمْ أتناولْ طَعامًا مُنْذُ أيّامٍ ، ولَمْ يَدْخُلْ جَوْفي سِوى الثَّلْجِ . »

فاربَدَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَصرخَ في القُرْصانِ : «وَهَلْ تستحِقُّ غَيْرَ هذا المَصيرِ ، أيُّها المُجْرِمُ ؟»

وأَطْبَقَ بِأَصابِعِهِ حَوْلَ عُنُقِهِ صارِخًا : « وَلَسَوْفَ تكونُ نِهايَتُكَ عَلى يَدَيَّ ، أيُّها الحَقيرُ . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ انْدَفَعَ وَراءَ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَخلَّصَ عُنُقَ القُرْصانِ مِنْ يَدِهِ ، وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « لا يَليقُ بِكَ ، أيُّها الشَّيْخُ أنْ تَقْتُلَ رَجُلاً يوشِكُ عَلى الهَلاكِ وَلا يَقْدِرُ عَلى الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عُتاةِ المُجْرِمينَ . »

عَضَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى شَفَتَيْهِ ، وَغَمْغَمَ قائِلاً في نَدَمٍ : « صَدَقْتَ ، أيُّها السِّنْدِبادُ . »

فَأَغْمَضَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ وَسَكَنَتْ حَرَكَتُهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ في النَّزْعِ الأَخيرِ .

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « أَخْبِرْنا ، أَيُّها القُرْصانُ ،

ماذا فَعَلْتَ بِابْنَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَأَيْنَ هِيَ ؟ »

فَتَحَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُجاهِدُ لِيَتَشَبَّثَ بِالحَياةِ وَقالَ في صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ : « إنَّها الوَحيدَةُ الَّتي رَفَضَتْ أَنْ تَتْرُكَني ، بِرَغْمِ ما سَبَّبْتُهُ لَها مِنْ أَذًى ؛ فَظَلَّتْ إلى جِواري تُحاوِلُ تَطْبيبي وَمُداواتي دونَ فائِدَةٍ . وَهِيَ الآنَ . . . »

وَلَمْ يُتِمَّ القُرْصانُ عِبارَتَهُ ، وَجَحَظَتْ عَيْناهُ ، ثُمَّ مالَتْ رَأْسُهُ وَتَوَقَّفَ تَنَفُّسُهُ . وَصَرَخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في جُنونٍ : « لا تَمُتْ ، أَيُّها الشَّيْطانُ قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنا بِمَكانِ ابْنَتي . »



وَأَمْسكَ بِبَدَنِ القُرْصانِ المَيِّتِ ، وَأَخَذَ يَهُزُّهُ في عُنْفٍ ، فَاحْتَضَنَهُ السِّنْدِبادُ قائِلاً : « اِطْمَئِنّ ، أَيُّها الشَّيْخُ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّ ابْنَتَكَ قَرِيبَةٌ مِنْ هُنا ؛ فَقَدْ أَخْبَرَنا هَذا الرَّجُلُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنَّها رَفَضَتْ تَرْكَهُ وَحِيداً ، وَلا شَكَّ أَنَّها غادَرَتْ مَنْزِلَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ طَعامٍ ، وَهِيَ لَنْ تَذْهَبَ بَعِيداً . »

وَقَفَزَ الشَّيْخُ رَشْدانُ نَحْوَ البابِ صارِخًا : « سَوْفَ أَبْحَثُ عَنْها . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ تَشَبَّثَ بِذِراعِهِ قائِلاً : « اِنْتَظِرْ وَسَنَخْرُجُ مَعَكَ ، أَيُّها الشَّيْخُ لِلْبَحْثِ عَنِ ابْنَتِكَ . وَلَكِنْ عَلَيْنا دَفْنَ القُرْصانِ أَوَّلاً . »

فَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَلَمْ يَرُدَّ ، وَظَلَّتِ الدُّمُوعُ تَسُحُّ مِنْ عَيْنَيْهِ مِدْراراً . وَنَهَضَ السِّنْدِبادُ فَجَهَّزَ حُفْرَةً خارِجَ المَنْزِلِ وَسَطَ الجَلِيدِ ، وَقامَ بِدَفْنِ القُرْصانِ فِيها وَالصَّلاةِ عَلَيْهِ .

وَأَشارَ لِيمو إِلَى آثارِ أَقْدامٍ عَلَى الأَرْضِ ، وَقالَ :

« هَذِهِ آثارُ قَدَمَيْ فَتاةٍ صَغِيرَةٍ ، وَهِيَ آثارُ قَدَمَيْ عَنْبَر دُونَ شَكٍّ ، فَهِيَ صَغِيرَةٌ مُتَعَثِّرَةٌ ، وَقَدِ انْطَبَعَتْ فَوْقَ الثَّلْجِ الهَشِّ الَّذي تَساقَطَ لَيْلَةَ أَمْسِ ، وَلَعَلَّنا نَكُونُ حَسَنِي الحَظِّ لَوْ عَثَرْنا عَلَيْها سَرِيعًا ، فَهِيَ لَنْ تَصْمُدَ في ذَلِكَ الطَّقْسِ القارِسِ البُرُودَةِ . »

وَأَسْرَعُوا ثَلاثَتُهُمْ وَراءَ أَثَرِ الأَقْدامِ الَّتي انْتَهَتْ فَجْأَةً إِلَى جِوارِ أَحَدِ الكُثْبانِ .

وَما كادَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُطِلُّ وَراءَها حَتّى اتَّسَعَتْ عَيْناهُ ، وَصَرَخَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « عَنْبَر . . اِبْنَتي ؟! »

وَكانَتْ عَنْبَر مُلْقاةً عَلَى الأَرْضِ فاقِدَةَ الوَعْيِ وَقَدْ تَجَمَّدَتْ أَطْرافُها ، وَأَوْشَكَ تَنَفُّسُها أَنْ يَتَوَقَّفَ ، فَاحْتَضَنَها الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَبْكي كَطِفْلٍ صَغِيرٍ ، وَهُوَ يَخْشَى فَقْدَ ابْنَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَيْها أَخِيراً .

الفَصْلُ الثّامِنُ
العَوْدَةُ إلى بَغْداد

كادَتْ عَنْبَر تَلْقى مَصْرَعَها ؛ وَلَكِنَّ مَهارَةَ ليمو أَنْقَذَتْها . وَعِنْدَما أَفاقَتْ ، اِحْتَضَنَها والِدُها وَمَسَحَ دُموعَها قائِلاً : « لَقَدِ الْتَأَمَ شَمْلُنا ، يا ابْنَتي ، وَلَنْ يَكونَ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلْبُكاءِ بَعْدَ الآن . »

وَقالَ ليمو : « سَوْفَ أَصْطَحِبُكُمْ إلى سَفينَتِكُمْ . »

و تَأَهَّبَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَبَحّارَتُهُ لِلرَّحيلِ ، وَعانَقَ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ ليمو ، الَّذي امْتَلأَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ ، وَدَعاهُ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ لِزِيارَتِهِما في بَلَدَيْهِما .

وَأَخيرًا أَقْلَعَتِ السَّفينَةُ عائِدَةً مِنْ حَيْثُ أَتَتْ . وَعَرَضَ الشَّيْخُ رَشْدانُ أَنْ يُكافِئَ السِّنْدِبادَ ، فَقالَ لَهُ السِّنْدِبادُ في

تَأَثُّرٍ : « إِنَّني مَدينٌ لَكَ ، أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ بِأَكْثَرَ مِمّا أَنْتَ مَدينٌ لي ؛ فَقَدْ عَلَّمْتَني مِنَ الفُنونِ وَالخِبْراتِ وَالعُلومِ ، ما كُنْتُ لا أَعْلَمُهُ وَحْدي ، وَلَكِنَّ ما يَشْغَلُني الآنَ هُوَ خَشْيَتي مِنَ العَوْدَةِ إلى دِياري في بَغْداد مَرَّةً أُخْرى . »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدان : « إِنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني خَيْرًا ، وَأَدْعو الله أَنْ يُفَرِّجَ كَرْبَكَ . »

وَأَخيرًا لاحَتْ شَواطِئُ البَصْرَةِ ، وَرَسَتِ السَّفينَةُ في الميناءِ ، وهُناكَ عَلِمَ السِّنْدِبادُ أَنَّ الخَليفَةَ عَزَلَ الوَزيرَ الظّالِمَ . وكادَ السِّنْدِبادُ يَطيرُ فَرَحًا ، واطْمَأَنَّ قَلْبُ الشَّيْخِ رَشْدانَ .

وَتَعانَقَ الاثْنانِ بِقُوَّةٍ ، وَ عَرَضَ السِّنْدِبادُ على الشَّيْخِ أَنْ يَسْتَضيفَهُ هُوَ وابْنَتَهُ ، فَوَعَدَهُ بِزِيارَةٍ قَريبَةٍ مَتى اسْتَقَرَّتْ أُمورُهُ ، ثُمَّ هَبَطَ السِّنْدِبادُ إلى الميناءِ بعدَ أن صافَحَ عَنْبَر ، وَشاهَدَ السَّفينَةَ تُبْحِرُ إلى دِمَشْق .

وَابْتاعَ السِّنْدِبادُ حِصانًا قَوِيًّا عادَ بِهِ إلى بَغْدادَ . وَأَسْرَعَ

إلى بَيْتِهِ ، فَوَجَدَ مَجْموعَةً مِنَ الجُنودِ في انْتِظارِهِ ؛ فَأصابَهُ القَلَقُ ، وَلَكِنَّ قائِدَهُمْ طَمْأَنَهُ وَأَبْلَغَهُ بِدَعْوَةِ الخَليفَةِ لِلِقائِهِ .

وَلَمّا مَثَلَ السِّنْدِبادُ بَيْنَ يَدَي الخَليفَةِ، دَعاهُ الخَليفَةُ لِلْجُلوسِ ، وَأَمَرَ بِرَدِّ أَمْوالِهِ إليه ، وسَأَلَهُ عَنْ غِيابِهِ ، وَعَنْ سِرِّ الفَرْقَعَةِ الَّتي هَزَّتْ بَغْداد يَوْمَ فِرارِهِ .

قَصَّ السِّنْدِبادُ ما وَقَعَ لَهُ مِنْ حَوادِثَ ، وَدَهِشَ الخَليفَةُ وَقالَ : « هَذا وَاللهِ أَعْجَبُ ما سَمِعْتُ في حَياتي . »

وَأَمَرَ لِلسِّنْدِبادِ بِمُكافَأَةٍ، عِوَضًا عَمّا لاقاهُ مِنْ مَشَقَّةٍ في هُروبِهِ ، وَتَقْديرًا لَهُ .

عادَ السِّنْدِبادُ إلى بَيْتِهِ وَقَلْبُهُ يَفيضُ بِالسَّعادَةِ ، وَقَدْ قَرَّ قَرارُهُ عَلى أَنْ يُمارِسَ حَياةَ السَّفَرِ وَالتَّرْحالِ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ .



رحلة السندباد المجهولة

مجدي صابر

مكتبة لبنان ناشرون